مقارنة بين

أحكـام القــرآن

للقاضي أبي بكر بن العربي

والجامع لأحكام القرآن

للإمام القرطبي

من خلال سورة المائدة



الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

رقم الإيداع

٨١٢١ / ٢٠٢٤

الترقيم الدولي

978 - 977 - 6546 - 81 - 3

مقارنة بين
أحكام القرآن
للقاضي أبي بكر بن العربي

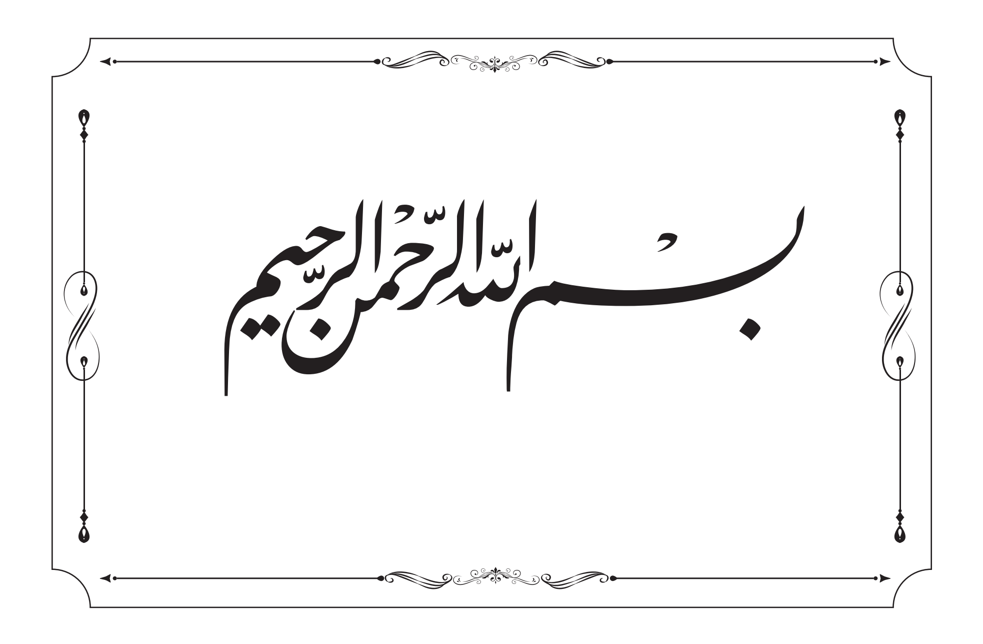
والجامع لأحكام القرآن
للإمام القرطبي

من خلال سورة المائدة

بقلم

د. عبد الرحمن ساكو حسين محمد

عضو الهيئة العالمية للعلماء والباحثين


بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، اللهم وزدنا علمًا وفقهًا وعملًا وصلاحًا وتقى، ما شاء الله كان، ونعوذ بالله من حال أهل النار.

أما بعد:

فإن الله تعالى بعث رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون، وأيده بالمعجزات الباهرات والآيات والدلائل الصادقات، فقام ﷺ وصدع بدعوة الحق والهدى، وبين ووضح ونفذ أمر ربه خير تنفيذ إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وجاء من بعده صحابته الكرام، وفي مقدمة أولئك الصفوة الأخيار الخلفاء الراشدون الذين قاموا بالمسؤولية خير قيام وأدوها على أكمل الوجوه وأحسنها، ثم جاءت دولة بني أمية فقامت بنصر الإسلام ونشره، فاتسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثرت الفتوحات الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

وفي دولة بني العباس بلغ المسلمون وبلغت الحضارة الإسلامية أوج عظمتها وازدهارها، فألفت الكتب ونشطت عملية الترجمة، إلى أن قامت الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس، فأصبحت مركزا للحضارة الإسلامية وقبل ذلك أصبحت مركزًا للعلماء والمتعلمين، فخرجت العلماء الأفذاذ ذوي البصائر

النيرات والآفاق الواسعات، فمنهم المفسر كابن عطية وابن العربي والقرطبي وابن جزي، ومنهم المحدث ومنهم الفقيه ومنهم الأصولي واللغوي إلى غير ذلك من أصحاب التخصصات والمعارف العلمية العالية، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

ولقد كان من بين أولئك النبهاء الأذكياء نابهان كبيران وفارسان عظيمان، ذاع صيتهما في الآفاق، وسارت بكتبهما الركبان في كل مكان، وهما: القاضي أبو بكر بن العربي المالكي رحمة الله عليه رحمة الأبرار الصالحين والإمام أبو عبدالله القرطبي المالكي رحمة الله عليه رحمة الأبرار الصالحين، وقد قاما بخدمة كتاب الله وتفسيره وبيان أوجه القراءات والإعراب واللغة والأدب والبلاغة فيه، مع بيان أحكامه الشرعية وما يتعلق بها من مباحث أصولية، فشكر الله لهما سعيهما وأجزل لنا ولهم الأجر والمثوبة بمنه وفضله وكرمه، إنه جواد كريم.

وإن من الأسباب التي دفعتني للكتابة في هذا الموضوع ما يلي:

أولًا: الرغبة في خدمة كتاب الله جَلَّجَلَالُهُ، حيث أكرمني الله بحفظه في سن مبكر جدًّا، والقرآن الكريم معين لا ينضب أنزله ربنا جَلَّوَعَلَا تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، فلا يستغني عنه طالب علم مهما بلغ رتبته ودرجته في العلم، فالكل محتاج إليه، وهذا من كمال إعجازه ومن تمام حفظ الله جَلَّجَلَالُهُ لكتابه الكريم.

ثانيًا: أهمية الموضوع، وتظهر أهميته أكثر فأكثر في كون الكتابات العلمية قليلة فيه.

ثالثًا: يعتبر كل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام أبي عبدالله القرطبي من كبار علماء المالكية، كما يعتبر كتابيهما مرجعا في الفقه الإسلامي عامة وفي فقه الإمام مالك على وجه الخصوص.

خطة الدراسة:

تتكون هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

أما المقدمة: فقد احتوت على بيان أهمية الموضوع، ودوافع اختياره، ثم خطة الدراسة.

الفصل الأول: ترجمة الإمامين بن العربي والقرطبي، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ترجمة القاضي أبي بكر بن العربي.

المبحث الثاني: ترجمة الإمام أبي عبدالله القرطبي.

الفصل الثاني: أوجه الاتفاق والتشابه بين الإمامين، وتحته ستة مباحث:

المبحث الأول: اهتمامهما بالتفسير بالمأثور.

المبحث الثاني: اهتمامهما بمباحث علوم القرآن.

المبحث الثالث: اهتمامهما باللغة العربية.

المبحث الرابع: اهتمامهما بعرض المباحث الأصولية.

المبحث الخامس: اهتمامهما بعرض الأحكام الفقهية.

المبحث السادس: اهتمامهما بعرض المباحث العقدية.

الفصل الثالث: أوجه الاختلاف بين الإمامين، وتحته ستة مباحث:

المبحث الأول: طريقة كل منهما في الترجيح.

المبحث الثاني: ابن العربي يقرر الحكم عن طريق الحوار والمناقشة خلافًا للقرطبي.

المبحث الثالث: القرطبي يهتم بالتفسير التحليلي أكثر من بن العربي.

المبحث الرابع: ابن العربي يشن حملات قاسية على مخالفيه، وموقف القرطبي منها.

المبحث الخامس: موقف كل من بن العربي والقرطبي من الأحاديث التي يوردانها.

المبحث السادس: ابن العربي يورد بعض الإشكالات ويجيب عنها، خلافًا للقرطبي.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج الدراسة، ثم فهرس للمصادر والمراجع وآخر للمحتويات.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل هذا العمل مقبولًا خالصًا لوجهه الكريم،

وأن يجعل ثوابه في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون،

إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله وسلم على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفصل الأول

ترجمة الإمامين أبي بكر بن العربي
وأبي عبد اللَّه القرطبي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: ترجمة القاضي أبي بكر بن العربي.

المبحث الثاني: ترجمة الإمام أبي عبدالله القرطبي.

المبحث الأول

ترجمة القاضي أبي بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ



هو الإمام العالم الحافظ المتبحر خاتمة علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها[١] شهرته تغني عن التعريف به[٢] أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد العربي المعافري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] الأندلسي الإشبيلي المالكي[٤] صاحب التصانيف الكثيرة التي تدل على سعة علمه واطلاعه وتبحره، والإشبيلي نسبة إلى إحدى المدن الأندلسية العريقة في العلم والفضل والمعرفة، يقال لها إشبيلية، والأندلسي نسبة إلى بلاد الأندلس التي كانت حاضرة من حواضر العلم والثقافة.

ولد رحمة الله عليه كما صرح بنفسه: «ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان، سنة ثمان وستين وأربعمائة»[٥].

أما عن نشأته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد شبَّ على حب العلم طموحا إلى المعالي، وكان والده حريصا على تكوينه كل الحرص، فعنه أخذ تعليمه الأول ولكثرة أشغاله وارتباطه بمهام الدولة اختار له ثلاثة معلمين أكفاء، أحدهم لضبط القرآن والثاني للعربية والثالث للرياضيات، فحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، ولم يبلغ السادسة عشر من عمره حتى أتقن القراءات العشر وجمع فنونا وتمرن

---

(١) الصلة لابن بشكوال، (ص٥٥٨).

(٢) راجع شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (ص١٣٦).

(٣) انظر: الصلة (ص٥٥٨)، وشجرة النور الزكية، (ص١٣٦)، والمرقبة العليا، (ص١٣٧).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٢٠/ ١٩٧).

(٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، (٤/ ٢٩٦-٢٩٧).

على الأدب والشعر، وقد ساعده على ذلك موهبته النادرة وذكاؤه الخارق، وكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم أرحل من الأندلس حتى أحكمت كتاب سيبويه»[١].

إذن نشأ صاحبنا رحمة الله عليه نشأة علمية خالصة، فقد كان والده من العلماء العارفين، ولهذا اعتنى بتربيته وتعليمه حتى وصل إلى ما وصل إليه.

ولم يكد يبلغ السابعة عشر من عمره حتى قدر لدولة بني عباد أن تسقط واستولى المرابطون على إشبيلية وصادروا أموال أمرائها ووزرائها ومن بينهم ضياع الوزير أبي محمد بن العربي، فلم يستطع الحياة في هذا الجو الخانق والبلاد تعيش شبه حالة الطوارئ فمن الخير له أن يترك العاصفة تمر ويدع السياسة جانبا إلى حيث يجد الهدوء والاطمئنان فرأى أن يرحل إلى المشرق ويفر بنفسه وولده تحت ستار أداء فريضة الحج[٢] إلى بيت الله الحرام.

وقد دخل صاحبنا رحمة الله عليه الشام ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي وتفقه عنده، ودخل بغداد وسمع بها من جماعة من أعيان مشائخها ثم دخل الحجاز فحج في موسم سنة تسع وثمانين، ثم عاد إلى بغداد وصحب بها أبا بكر الشاشي وأبا حامد الغزالي وغيرهما من العلماء والأدباء، ثم صدر عنهم ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين وقدم على إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها مقدما في المعارف كلها متكلما في أنواعها نافذا في

---

(١) بغية الملتمس، (ص٨٠).

(٢) انظر: كتاب مع القاضي ابن العربي، (ص١٢-١٣).

جميعها حريصا على أدائها ونشرها ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود(١).

أما شيوخه وتلاميذه، فلقد سنحت الفرصة للقاضي أبي بكر بن العربي رحمة الله عليه فالتقى بعلماء أجلاء كان له الشرف في التتلمذ عليهم، وهم كثيرون ولله الحمد والمنة، وسأذكر جملة حسنة من هؤلاء الشيوخ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر والاستيعاب، وفيما يلي بعض شيوخه:

١- أبو الحسن بن الحداد الخولاني، وقد تقابل معه بالمهدية وقرأ عليه تآليفه.

٢- الإمام المازري.

٣- أبو بكر الطرطوشي، وتفقه عنده.

٤- أبو الحسن بن داود.

٥- أبو الحسن الخلعي.

٦- أبو الحسن بن شرف.

٧- أبو الفضل المقدسي.

٨- أبو سعيد الزنجاني.

٩- أبو محمد الطبري.

وأخذ عنهم وعن غيرهم، وصحب أبا حامد الغزالي وانتفع به(٢).

وذكر الحافظ ابن عساكر رحمة الله عليه أنه سمع بدمشق من أبي البركات ابن طاووس والشريف النسيب(٣) كذلك ذكر ابن بشكوال رحمة الله عليه في

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٤/ ٢٩٦-٢٩٧).
(٢) انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (ص١٣٦-١٣٧).
(٣) سير أعلام النبلاء، (٢٠/ ١٩٧-١٩٩).

صلته أنه دخل بغداد وسمع بها من أبي الحسين ومن أبي بكر بن طرخان[١] رحمات الله عليهم أجمعين.

أما بالنسبة لتلاميذه فقد انتفع به خلق كثير، ولا غرو في ذلك فقد كان رحمة الله عليه فقيها مفسرا حافظا بارعا في جميع الفنون والمعارف، ولذا تخرج عليه جم غفير من العلماء وبرعوا في شتى العلوم والمعارف، فمنهم الفقيه البارع والمحدث الحافظ والمؤرخ الحاذق وغيرهم على اختلاف تخصصاتهم، وسأذكر جملة حسنة من أولئك التلاميذ النجباء، ومنهم:

١- القاضي عياض.
٢- ابن بشكوال.
٣- أبو جعفر الباذش.
٤- أبو عبدالله بن عبدالرحمن.
٥- أبو عبدالله بن خليل.
٦- أبو الحسن النعمة.
٧- أبو بكر بن خير.
٨- أبو القاسم بن حبيش.
٩- الإمام السهيلي.
١٠- أبو العباس الصقر.
١١- أبو القاسم الحوفي.
١٢- أبو محمد الخراط[٢] وغيرهم.

---

(١) الصلة، (٢/ ٥٥٨-٥٥٩).
(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (ص١٣٦-١٣٧).

وفيما يتعلق بمؤلفاته، فلعل من خير ما يصور مكانة القاضي أبي بكر بن العربي رحمة الله عليه العلمية واتجاهاته الفكرية دراسة آثاره العلمية الكثيرة التي خلفها وتبيان قيمتها مقارنة بمثيلاتها ومدى اهتمام العلماء والدارسين بها من عصره إلى عصرنا الحاضر[١].

ولقد اعتنى رحمة الله عليه بالتأليف والتصنيف كما أشار إلى هذا خير الدين الزركلي رحمة الله عليه في قوله: «رحل إلى المشرق وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، وصنف كتبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ»[٢] وعبارة الزركلي هذه تدل على أن القاضي ابن العربي كان من المكثرين في التأليف.

وقد ألف في فنون عدة مما يدل على أنه كان واسع المعرفة والاطلاع، وأثرى المكتبة الإسلامية بالتصانيف النافعة المفيدة والبديعة، وفيما يلي ذكر أسماء بعضها:

١- عارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وهو مطبوع ومتداول.

٢- أحكام القرآن، مطبوع ومتداول.

٣- قانون التأويل، مطبوع.

٤- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مطبوع.

٥- ترتيب الرحلة والترغيب في الملة، مفقود.

٦- أنوار الفجر في مسالك الذكر، مخطوط[٣] وغيرها كثير.

---

(١) آراء ابن العربي الكلامية، (١/ ٦٥-٨٣).

(٢) الأعلام للزركلي، (٦/ ٣٣٠).

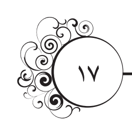
(٣) انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (ص١٣٦-١٣٧).

أما فيما يتعلق بالأعمال التي قام بها، فقد عاد رحمة الله عليه إلى وطنه الأندلس بعد غياب طويل دام عشر سنوات أو تزيد، عاد وقد سبقه علمه وذاع صيته واشرأبت الأعناق لرؤيته واحتشدت الجموع لملاقاته والترحيب به وشدت الرحال للأخذ عنه والسماع منه، وبالغ المرابطون في إكرامه والاحتفاء به، فناهيك من حظوة لقي ومن عزة سقي ومن رفعة سما إليها ورقى، وحسبك من مفاخر قلدها ومحاسن أنس أنبتها وخلدها[١].

وما إن مرت الأيام حتى رأينا الأمير يدعوه لحضرته ويختاره للشورى بين يديه، وهو منصب عال لا يرقى إليه إلا الصفوة المختارة من رجالات الفكر وأئمة الفقه يجعلهم في مصاف الوزراء وكبراء رجال الدولة، ومن هنا نجد بعض معاصريه يحليه بلقب الوزير[٢] ولم تكن أعماله الإدارية بمجلس الشورى لتعوقه عن مهامه العلمية من بحث وتأليف وتدريس ووعظ، ولكن صلته بالسلطان ربما أساءت إلى سمعته كعالم متحرر وداعية إسلامي، فهذا أحد تلاميذه المعجبين به أبو عبدالله بن مجاهد الإشبيلي الزاهد العابد لازم ابن العربي نحوا من ثلاثة أشهر ثم تخلف عنه فقيل له ذلك، فقال كان يدرس وبغلته بالباب تنتظره للركوب إلى السلطان[٣].

ومن الأعمال التي قام بها القاضي ابن العربي رحمة الله عليه أيضًا أن الصليبيين لما اكتسحوا أراضي الإسلام في عدة جهات من شرق الأندلس وأضحى الخطر يتهدد الثغر الأعلى بكامله قام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الناس يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله

(١) مطمح الأنفس، لابن خاقان، (ص٢٩٨).
(٢) راجع كتاب صنعة الكلام، (ص١٦٠-١٦١).
(٣) التكملة، (٢/ ٥٢٢).



ونجدة إخوتهم وجيرانهم وطلب من الوالي أن يجعل الجند في استنفار ويعلن الجهاد في سائر الأقطار حتى لا يبقى أحد.

يقول القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه: فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة فلتكن منكم إلى نصرة الدين حركة، وليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى أحد في جميع الأقطار فيحاط به، فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله فغلبت الذنوب ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوي إلى وجاره وإن رأى المكيدة بجاره، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل[(١)].

ومن أهم أعماله التي تقلدها: القضاء، ولقد أظهر رحمة الله عليه لدى توليته الشورى بين أيدي القضاة كفاءة نادرة تدل على تضلعه الواسع في علوم الشريعة وغيرة ملتهبة على حقوق الضعفاء والوقوف إلى جانب المظلومين، وكان في مجالسه العلمية ينتقد الأوضاع الفاسدة التي يعيشها المجتمع الأندلسي، وينحى باللائمة على الولاة والمسؤولين، وكان لتلك النداءات المتكررة صداها البعيد في مراكش على المرابطين، فأصدر علي بن يوسف بن تاشفين مرسوما بتولية أبي بكر ابن العربي قضاء إشبيلية يحمل تاريخ منسلخ جمادى الثانية سنة ٥٢٨هـ[(٢)].

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدلًا مستقيمًا صلبًا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، قال ابن بشكوال رحمة الله عليه: «واستقضي ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه»[(٣)].

---

(١) انظر: مطمح الأنفس، (٤/ ٤٧٦).

(٢) انظر: كتاب مع القاضي ابن العربي، (ص٨٣-٨٤).

(٣) الصلة، (ص٥٥٨-٥٥٩).

أما عن عقيدته ومذهبه الفقهي، فالذي يظهر لي بعد التأمل والنظر، والله أعلم هو أن عقيدة ابن العربي كانت عقيدة أشعرية، إلا أنه لم يكن من المتعصبين للمذهب الأشعري، بل كان يخالف الأشاعرة في بعض علومهم.

ولعل السر في تأثره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا المذهب هو الجو الذي عاشه في ذلك الوقت والبيئة التي نشأ فيها وترعرع بين جدرانها، ومعلوم أن بلاد المغرب والأندلس في ذلك الوقت، وحتى غرب إفريقيا أو ما يسمى بمنطقة الغرب الإفريقي، كانت هذه الفكرة متغلغلة في نفوس أهلها بشدة وقوة، بل ينافحون عنها بقوة وعزيمة ورباطة جأش، كما تأثر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأهل الكلام ونهج منهجهم في تقرير بعض الأحكام العقدية(١).

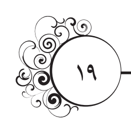
أما بالنسبة لمذهبه الفقهي فالناظر في أهل تلك البلدة وفي كتابه القيم الموسوم بـــ: أحكام القرآن يجد أنه كان متمذهبا على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو من كبار علماء المالكية، ولذا كان في كتابه يذكر أقوال الأئمة الفقهاء ويستعرض أدلتهم ثم يرجح مذهبه في كثير من الأحيان ويرد على المخالف له، بل ويشن عليه حملات قاسية وقوية، وبهذا يظهر روح التعصب عنده للمذهب المالكي(٢).

ومن الأدلة على مالكيته: تراجم علماء المالكية له في كتبهم، وهنا أود التنبيه على نقطة مهمة مفادها: «أن ابن العربي لم يبلغ به التعسف إلى حد يجعله يفند

---

(١) لمزيد من الاطلاع ينظر في كتاب قانون التأويل لابن العربي، (ص٢٥٦).

(٢) انظر: مع القاضي ابن العربي، (ص١٧٧)، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (ص١٣٦-١٣٧)، والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، (ص٢٨١-٢٨٤).



كلام مخالفه إذا كان وجيهًا ومقبولًا، كذلك لم يشتط في تعصبه إلى درجة تجعله يتغاضى عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي»[١].

لقد برع صاحبنا رحمة الله عليه في فنون كثيرة من العلم، فئن جئته في الفقه فهو الفقيه المجتهد، وإن جئته في الحديث فهو المحدث الحافظ، وإن جئته في الأصول فهو الأصولي المتكلم، وكتبه خير شاهد على هذا فقد ألف في الفقه والتفسير والحديث والأصول واللغة العربية.

ولهذا تتابع ثناء العلماء عليه ووصفوه بالتقوى وسعة العلم والاطلاع فيه، فهذا هو الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول فيه: «صنف وجمع، وفي فنون العلم برع، وكان فصيحًا بليغًا خطيبًا»[٢] وقال عنه أيضًا: «وكان ثاقب الذهن عذب المنطق كريم الشمائل كامل السؤدد...»[٣].

وقال عنه خير الدين الزركلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «برع في الأدب وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، وصنف كتبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ»[٤].

وقال أيضًا: «ابن العربي قاض من حفاظ الحديث، ولد في إشبيلية ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين»[٥].

وقال صاحب شجرة النور الزكية في تراجم المالكية: «الإمام الحافظ المتبحر خاتمة علماء الأندلس وحفاظها، الجليل القدر الشهير الذكر، شهرته تغني عن التعريف به»[٦].

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي، (٢/ ٤٤٩).
(٢) سير أعلام النبلاء، (٢٠/ ١٩٧-٢٠٤).
(٣) المصدر السابق، (٢٠/ ١٩٧-٢٠٤).
(٤) الأعلام، (٦/ ٢٣٠).
(٥) المصدر السابق، (٦/ ٢٣٠).
(٦) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (ص١٣٦-١٣٧).

وبهذا تعلم أن ابن العربي كان ملمًّا بجميع الفنون ومشاركا فيها، مما ينبئ عن سعة علمه ودقة اطلاعه وشدة حفظه وذكائه.

وأخيرًا، فعلى مقربة من مدينة فاس المغربية أدركته منيته وحمل ميتًا إلى مدينة فاس، فدفن بها في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[١] وقيل إن وفاته كانت في جمادى الأولى[٢] رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى مكانته ومنزلته في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

طريقته في التفسير:

سلك فيه منهج التفسير الفقهي والتزم فيه المذهب المالكي، اقتصر على تفسير آيات الأحكام الفقهية، فيذكر السورة ثم يذكر عدد آيات الأحكام فيها، ثم يأخذ في شرحها آية آية قائلًا الآية الأولى، ثم يذكرها وفيها تسع مسائل (مثلًا) ثم يورد مسائل الآية واحدة واحدة مبينا في هذه المسائل موضع نزولها وتاريخه وسببه إن وجد، ويذكر الأحاديث في فضلها إن ورد، ويبين القراءات الواردة فيها ويتحدث عن لغتها ونحوها، ثم يفصل أحكامها ويعرض أقوال العلماء فيها وأدلتهم، ويرجح غالبًا مذهبه المالكي مع حدة لسانه أحيانًا على المخالفين، إلا أنه أحيانًا أخرى يرجح غير مذهبه ويصرح بذلك[٣].



---

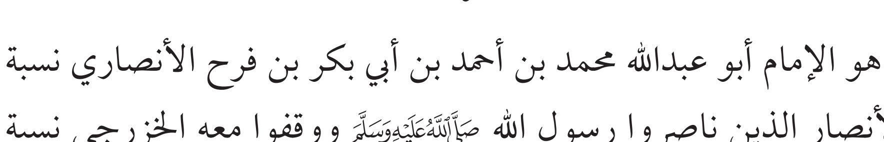
(١) الصلة، (ص٥٥٩).

(٢) انظر: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، لأبي الحسن المالقي الأندلسي، (ص١٣٧-١٣٨)، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٤/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٣) منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، للدكتور فهد الرومي، (ص١١).

المبحث الثاني

ترجمة الإمام أبي عبدالله القرطبي



هو الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري نسبة إلى الأنصار الذين ناصروا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقفوا معه الخزرجي نسبة إلى الخزرج قبيلة من إحدى قبائل الأنصار الأندلسي نسبة إلى بلاد الأندلس مركز الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت القرطبي نسبة إلى قرطبة إحدى المدن الأندلسية المفسر[١] أحد أعلام المذهب المالكي ببلاد الأندلس.

لم تشر المراجع التاريخية إلى السنة التي ولد فيها أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، ولكننها تتفق جميعها على السنة التي مات فيها[٢] وقد ولد رَحِمَهُ اللهُ بقرطبة من أرض الأندلس ونشأ بها وتلقى العلوم، وسمع الحديث والفقه فيها حتى سقوطها بأيدي الفرنج سنة ٦٣٣هـ[٣].

يقول الدكتور القصبي: «نشأ القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في كنف أبيه ورعايته، ووالده كان يشتغل بالزراعة وكان يباشر حصاد أحد المحاصيل يوم قتل مع غيره من المسلمين على يد النصارى بقرطبة سنة ٦٢٧هـ»[٤].

ولقد كانت قرطبة تدين في ذلك الوقت بالطاعة لزعيمها محمد بن يوسف الذي استطاع أن يخلع طاعة الموحدين وأن يدعو لنفسه منذ سنة ٦٢٥هـ،

(١) انظر: التفسير والمفسرون، (٢/ ٤٣٧).
(٢) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٦).
(٣) القرطبي شيخ أئمة التفسير، (ص١٧).
(٤) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص١٠٧).

فبايعته مرمية وماردة وبطليوس وقرطبة، وعندما رأى النصارى ذلك أكثروا من الغزوات على أملاكه حتى يحطموا قوته قبل أن تستفحل[١] ورغم هذا وكله فإنه لا يزال يوجد شيء من الغموض عن حياة هذا الرجل، لكني أستطيع القول بأن الإمام القرطبي رحمة الله عليه ولد في عصر الموحدين، فإذا افترضنا أنه ولد في الحلقة الأخيرة من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بقليل، فإنه يكون قد ولد في عهد الخليفة يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن[٢].

وعندما بلغ صاحبنا رحمة الله عليه من العمر حدا يسمح له بتلقي العلوم تعلم العربية والشعر إلى جانب تعلمه القرآن، وهذه الطريقة طريقة التعليم انفرد بها أهل الأندلس، وهم في ذلك يخالفون سائر الأمصار الإسلامية الأخرى، حيث يتعلم الصبيان القرآن وحده أولا دون سائر العلوم.

ثم بعد ذلك واصل القرطبي تعليمه وترقى فيه فتنقل بين حلقات العلم الأندلسية، وكانت المساجد أماكن وجود هذه الحلقات، ومن ثم كانت له رحلات علمية إلى كل من إشبيلية وفاس والتقى فيها بكثير من العلماء وأخذ عنهم، ثم عاد إلى بلنسية وتصدر للتدريس بالمسجد الجامع[٣].

كما وصل في رحلته العلمية تلك إلى كل من الإسكندرية والمنصورة والفيوم والقاهرة، وغيرها من المدن والتقى بالشيوخ[٤].

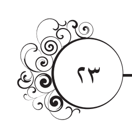
---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، (٢/ ٩٢).

(٢) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٨).

(٣) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص١٠٧).

(٤) القرطبي شيخ أئمة التفسير، (ص٣٧).



أما العلوم التي برع فيها وثناء العلماء عليه، فلقد برع رحمة الله عليه في جميع الفنون والمعارف، فهو المفسر الناقد، والمحدث الحافظ والفقيه البارع والأصولي المتكلم، وكتبه هي التي تبين ذلك وتوضحه، قال عنه الإمام ابن العماد الحنبلي رحمة الله عليه: «كان إماما علما من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل»[١] ونقل صاحب نفح الطيب عن ابن شاكر الكتبي أنه قال في حقه: «كان شيخنا فاضلا وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفرة علمه»[٢] وغضب بعض تلامذته من ترجمة الكتبي له وعلق عليها بقوله: «وقد أجحف المصنف في ترجمته جدًّا، وكان متفننًا متبحرًا في العلم»[٣].

لقد أثنى المؤرخون والكتَّاب على هذا الإمام ثناء عطرا، ومن ذلك قول بعضهم: «إنه كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة وبلغ من زهده أنه طرح التكلف وصار يمشي بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوبة إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى»[٤].

أما بالنسبة لعقيدته ومذهبه الفقهي، فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن عقيدة أهل المغرب منذ الفتح الإسلامي كانت سنية سلفية، وأنهم استمروا على ذلك إلى أن جاء ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فنقلهم إلى الأشعرية[٥].

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، (٥/ ٣٣٥).

(٢) نفح الطيب، (٢/ ٢١١).

(٣) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٣٩).

(٤) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، (ص٣١٧-٣١٨).

(٥) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، (١/ ١٢٦).

لكن المتأمل لكتب التراجم والطبقات يجدها قد ترجمت لعدد كبير من علماء الأندلس والمغرب اعتنقوا المذهب الأشعري قبل دولة الموحدين التي قامت في أوائل القرن السادس تقريبًا[١].

والكلام يطول حول هذه المسألة، ولكن الرائد في مثل هذا الموضوع كتابان:

الأول: المفسرون بين الإثبات والتأويل للمغراوي حيث تكلم عن عقيدة القرطبي، فقال: «أما عقيدته في الأسماء والصفات فالمتتبع للتفسير والأسنى والتذكرة في بعض مواضعها يرى أن الرجل قد ذهب إلى ما ذهب إليه الأشاعرة في هذا الباب... ومن جهة أخرى فإن القرطبي عمدته في عقيدة الأسماء والصفات هي أقوال أئمة الأشاعرة وأساطينهم كالجويني وابن الباقلاني والإسفرائيني والقلانسي والرازي وابن عطية وغيرهم، فالقرطبي أشعري العقيدة في باب الأسماء والصفات لا ريب ومن شك فعليه مراجعة ما كتبناه في بحثنا هذا عنه»[٢].

والثاني: الدكتور القصبي في كتابه القيم الموسوم بـ: القرطبي ومنهجه في التفسير، حيث قال: «ومن هذا العرض تبين لنا أن القرطبي كان سنيًّا أشعريًّا ينتصر لمذهب أهل السنة ويدافع عنه، وإن كان في تفسير بعض الآيات التي يوهم ظاهرها مشابهة الله للحوادث يميل إلى التأويل، وإنه لم يقتصر على مهاجمة المعتزلة، بل تعرض للهجوم على كثير من الفرق السياسية والدينية»[٣].

---

(١) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٥١-٥٢).
(٢) المفسرون بين الإثبات والتأويل، (١/ ٢٨٩).
(٣) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٦٤).

أما مذهبه الفقهي فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ مالكي المذهب؛ لأنه مذهب أهل بلده وسائر بلاد المغرب، والدليل على ذلك تراجم علماء المالكية له في كتبهم[١] وخير ما في الرجل هو أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي بل يمشي مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أيا كان قائله[٢] ولذا نجده كثيرًا ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجم ابن العربي من المخالفين مع توجيه اللوم إليه أحيانا على ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه[٣].

وبهذا تعلم أن الإمام القرطبي رحمة الله عليه يعد من المنصفين وليس من المتعصبين كما فعل القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله علينا وعليهم أجمعين.

أما فيما يتعلق بمنهجه الفقهي فسوف يأتي الحديث عنه عند المقارنة إن شاء الله، فلا داعي لذكره هنا.

وفيما يتعلق بمؤلفاته، فقد تقدم فيما مضى أن الإمام القرطبي رحمة الله عليه يعتبر من العلماء الذين ألفوا، بل وأكثر من التأليف، فقد أثرى المكتبة الإسلامية بالمصنفات النافعة مما يدل على سعة علمه واطلاعه، وسوف أذكر في هذه العجالة السريعة بعضًا من مؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن ذلك:

١ - كتابه التفسير (الجامع لأحكام القرآن) وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعًا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ.

---

(١) التفسير والمفسرون، (٢/ ٤٤٠)، والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، (ص٣١٧-٣١٨).
(٢) التفسير والمفسرون، (٢/ ٤٤٠).
(٣) نفس المصدر السابق، (٢/ ٤٤٣).

٢- شرح الأسماء الحسنى.

٣- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

٤- التذكار في أفضل الأذكار.

٥- التذكرة في أحوال الموتى والآخرة.

٦- قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة[١] قال عنه الإمام ابن فرحون المالكي رحمة الله عليه: «لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه».

٧- أرجوزة، جمع فيها أسماء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وله تآليف وتعاليق مفيدة غير هذه[٢].

أما بالنسبة لشيوخه، فقد سمع من ابن رواج ومن ابن الجميزي، والشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، وأبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري الحافظ وغيرهم[٣].

أما ما يتعلق بتلاميذه، فمنهم:

١- ابنه شهاب الدين أحمد.

٢- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي العاصمي الغرناطي.

٣- إسماعيل بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالصمد.

---

(١) انظر: طبقات المفسرين للأدنوي، (ص٢٤٦)، وطبقات المفسرين للداودي، (ص٦٦)، والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، (٢/ ٣٠٩)، والأعلام، (٥/ ٣٢٢)، والقرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٤٠-٤٣).

(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، (٢/ ٣٠٩).

(٣) القرطبي شيخ أئمة التفسير، (ص٧٠-٧٧)، وطبقات المفسرين للداودي، (ص٦٦).

٤- أبو بكر محمد بن الإمام الشهيد كمال الدين أبي العباس.

٥- ضياء الدين أحمد بن أبي السعود بن أبي المعالي البغدادي[١].

وهنا أود الإشارة إلى نقطة مهمة، وهي الأعمال التي باشرها الإمام القرطبي رحمة الله عليه، وفي هذا الصدد أقول: لم أجد أحدا تكلم حول هذه النقطة حسب اطلاعي القاصر لكتب التراجم والطبقات، ولكن ذكر صاحب كتاب القرطبي ومنهجه في التفسير نقلا عن صاحب التكملة أنه: «كانت له رحلات علمية إلى إشبيلية وفاس، والتقى فيها بكثير من العلماء... وعاد إلى بلنسية وتصدر للتدريس بالمسجد الجامع»[٢] وقال في موضع آخر من كتابه: «واستمر القرطبي يدرس ويدرس إلى أن قدم إلى مصر وهو على درجة كبيرة من الثقافة والعلم»[٣].

وعليه فإنه يمكن القول: إن من الأعمال التي زاولها الإمام القرطبي رحمة الله عليه التدريس في بلنسية بعد رجوعه من رحلاته العلمية، ينضاف إلى ذلك مباشرته لمهنة التأليف والتصنيف، فقد ألف كتبا نافعة أثرت المكتبة الإسلامية، وتفسيره القيم الماتع الموسوم بـ: الجامع لأحكام القرآن خير دليل على هذا المنحى العلمي الأصيل والعمل البحثي الدؤوب.

وأختم هذا المبحث بعون الله بالحديث عن وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد كان مستقرا بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى وبها توفي في ليلة الإثنين، التاسع من شهر شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة[٤].

---

(١) كتاب القرطبي شيخ أئمة التفسير، (ص٨٧-٩٤).

(٢) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٩).

(٣) المصدر السابق، (ص١٨).

(٤) طبقات المفسرين للداودي، (ص٦٦).

رحم الله شيخنا القرطبي رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وأجزل لنا وله ولجميع المسلمين الأجر والمثوبة بمنه وفضله وكرمه.

تفسيره:

وصف الإمام أبو عبدالله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ تفسيره فقال: «يتضمن نكتا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات والرد على أهل الزيغ والضلالات وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات جامعا بين معانيهما، ومبينا ما أشكل منهما بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف...، وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها... وأضرب كثيرا عن قصص المفسرين وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكمًا ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب»[(١)].

وبهذا يظهر أن تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ليس تفسيرًا لآيات الأحكام فحسب، وإنما لجميع آيات القرآن، وإن كان أولى آيات الأحكام تفصيلا كاد يغني عن كتب الفقه المقارن لما فيه من عرض للآراء الفقهية وسوق للأدلة.

وقد التزم المذهب المالكي، إلا أنه لم يتعصب له، بل يرجح ما يرى صوابه أيا كان قائله، بل ينتقد موقف ابن العربي من مخالفيه ويدافع عنهم ويرد عليه[(٢)] رحمهم الله جميعًا رحمة واسعة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١/ ٣).
(٢) منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، (ص١٣-١٤).

الفصل الثاني

أوجه الاتفاق والتشابه بين الإمامين

وتحته ستة مباحث:

المبحث الأول: اهتمامهما بالتفسير بالمأثور.

المبحث الثاني: اهتمامهما بمباحث علوم القرآن.

المبحث الثالث: اهتمامهما باللغة العربية.

المبحث الرابع: اهتمامهما بعرض المباحث الأصولية.

المبحث الخامس: اهتمامهما بعرض الأحكام الفقهية.

المبحث السادس: اهتمامهما بعرض المباحث العقدية.

المبحث الأول

اهتمامهما بالتفسير بالمأثور

إن التفسير بالمأثور يشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل، وما نقل عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

وأما ما ينقل عن التابعين فبعض العلماء يعتبره من التفسير بالمأثور، وبعضهم يعتبره من التفسير بالرأي، والتفسير بالمأثور هو أول أنواع علوم القرآن تدوينًا، وكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول في هذا، ويقولون: إن أول من جمع فيه هو الإمام مالك بن أنس ثم انفصل التفسير عن الحديث فألفت في القرن الثاني تفاسير جمعت أقوال الصحابة والتابعين(١).

(أ) تفسير القرآن بالقرآن:

لقد اهتم كل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام القرطبي رحمات الله عليهما بالتفسير بالمأثور، فقاما بإيراد جزء كبير منه في سفريهما القيمين، وشمل ذلك تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة النبوية، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.

لقد ذكر القاضي ابن العربي رحمة الله عليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١] خلاف المفسرين في المراد ببهيمة

(١) علوم القرآن للدكتور نور الدين عتر، (ص٧٤).

الأنعام، ثم بين الراجح عنده وهو أن المراد بها الإبل والبقر والغنم، وَدَعَّم ترجيحه بعدة آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾، ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٥-٨] وهذا هو عين تفسير القرآن بالقرآن.

كذلك ذكر الإمام القرطبي رحمة الله عليه خلاف العلماء في المراد ببهيمة الأنعام، ثم رجح نفس القول، واستدل له بنفس الآيات السابقة[(١)] وهذا دليل واضح وبرهان بين على سعة علمهما وفهمهما لكتاب الله جل في علاه.

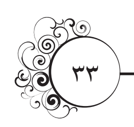
ومن الأمثلة أيضًا: ما أورده الإمام القرطبي رحمة الله عليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١] فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: يقرأ عليكم في القرآن والسنة من قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [المائدة:٣]»[(٢)] ومن فائدة هذا النوع من التفسير أنه يدل على قوة القرآن وتماسك ألفاظه وترابطه بحيث يصدق بعضه بعضا، وهذا من كمال إعجاز القرآن الكريم.

(ب) تفسير القرآن بالسنة النبوية:

كما اعتنيا القاضي أبو بكر بن العربي والإمام القرطبي بتفسير القرآن بالقرآن، فإنه لم يغب عن ذهنهما تفسير القرآن بالسنة النبوية.

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي، (٢/ ١٢-١٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (٦/ ٢٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٥).



فقد أورد ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة:٤] حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قلت: يا رسول الله: إني أرسل الكلاب المعلمة فيمسكن عليَّ وأذكر اسم الله، فقال: «**إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل مما أمسك عليك**»(١).

وهذا يعد تفسيرًا للقرآن بالسنة النبوية، فإنه ذكر الحديث في موضع الاستشهاد به؛ كي يقوي ويعضد ما ذهب إليه من تفسير، وأيضًا فإن الإمام أبا عبدالله القرطبي رحمة الله عليه تناول مثل هذا النوع من التفسير بالمأثور، فقد ذكر عند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كل ذي ناب من السباع حرام**»(٢) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قيل: الذي يتلى علينا الكتاب ليس السنة، قلنا كل سنة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي عن كتاب الله، والدليل عليه أمران...»(٣).

(جـ) تفسير القرآن بأقوال الصحابة:

لقد تناول كل من العالمين الجليلين تفسير القرآن بأقوال صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتفسير الصحابي له حكم الرفع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أومأ إلى ذلك الإمام السيوطي رحمة الله عليه(٤) لأن الصحابة شاهدوا التنزيل وعاصروا

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، والإمام مسلم في صحيحه.
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٥).
(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن، (٤/ ١٨١).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند نزول القرآن، فهم أعرف الناس بالتأويل؛ لأنهم عرب أقحاح فصحاء لم يتسرب الفساد اللغوي إلى ألسنتهم فأقوالهم حجة في تفسير القرآن الكريم.

لقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة:٤] قولًا لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو: «إذا أدركت ذكاة الموقوذة وهي تحرك يدا أو رجلا فكلها، وبه قال ابن عباس وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو خال عن مانع شرعي يرده»(١).

ومعلوم أن عليا وابن عباس وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أشهر مفسري الصحابة بعد الخلفاء الأربعة كما أورد ذلك الإمام السيوطي رحمة الله عليه في إتقانه(٢).

وكذلك الإمام القرطبي رحمة الله عليه فقد ذكر عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥] قول عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في المراد بالمحصنات، وهن: «العفيفات العاقلات»(٣).

(د) تفسير القرآن بأقوال التابعين:

لقد قام القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه باستعراض أقوال المفسرين من التابعين فعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ

---

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٢٥).
(٢) الإتقان في علوم القرآن، (٤/ ٢٠٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٥٣).

وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ [المائدة:٨٩] ذكر قولًا للتابعي الجليل مجاهد بن جبر المكي رحمة الله عليه[١] في معنى (عَقَّدتُّمُ) وهو:(تعمدتم) وقولًا للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] في بيان معنى الكلمة، وهو:(ما تعمدت به المأثم فعليك فيه الكفارة)[٣] ثم نهض رحمة الله عليه بمهمة توجيه القولين وتحقيق القول فيهما.

كذلك استعرض الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه أقوال المفسرين من التابعين، فعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [المائدة:١] ذكر قولًا للإمام الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المراد بالعقود وهي: «عقود الدين، وهي ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء»[٤] والكلام حول هذه المسألة يطول جدًّا، وأكتفي بما تم إيراده في هذا المبحث.



(١) هو مجاهد ابن جبر المكي من كبار التابعين، وهو تلميذ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، يقول عن نفسه: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت وكيف كانت». تهذيب التهذيب لابن حجر، (١/ ٤٢).

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، تابعي جليل من تلامذة ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يقول عنه قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما جالست فقيها إلا رأيت فضل الحسن عليه». تهذيب التهذيب (٢/ ٣٦٣)، والتفسير والمفسرون، (١/ ١٢٦).

(٣) انظر: أحكام القرآن، (٢/ ١٥٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٣).

المبحث الثاني

اهتمامهما بمباحث علوم القرآن

(أ) عنايتهما بإيراد المدني والمكي:

إن معرفة علوم القرآن أمر ضروري لمفسر كتاب الله جَلَّجَلَالُهُ؛ لأن هذا الفن بمثابة المفتاح الذي يلج منه المفسر ويصل به إلى المراد الصحيح، وما يحرص عليه من غايات نبيلة.

فلا بد للمفسر بادئ ذي بدء أن يكون عالما بفن علوم القرآن كما أشار إلى ذلك الدكتور الرومي[1] لذا نجد العلماء قد اهتموا بهذا العلم وأولوه عنايتهم الفائقة، إذ كيف يتسنى للمفسر أن يفسر كتاب الله، وهو لا يميز بين الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والعام والخاص، وغير ذلك من مباحث علوم القرآن.

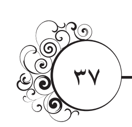
إن ذلك يجره قطعا إلى القول على الله بغير علم، والله جَلَّجَلَالُهُ يقول في محكم تنزيله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦]، ويقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦].

وعليه فلقد اهتم القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه بمبحث المكي والمدني وأولاه عناية فائقة[2] وقد أورد عند تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة:١] ما يلي:

---

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، للدكتور فهد الرومي، (ص١٨٥-١٨٦).

(٢) من فوائد دراسة المكي والمدني تمييز الناسخ من المنسوخ، فإن المتأخر ناسخ للمتقدم. انظر: مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح، (ص٢٢٣).



يقول رحمة الله عليه: «إذا سمعت يا أيها الذين ءامنوا فهي مدنية، وإذا سمعت يا أيها الناس فهي مكية»[١] وقد أورد الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه مثل هذا القول عند تفسير ذات الآية الكريمة[٢] وكأنهما يشيران بهذا القول إلى بعض ضوابط المكي والمدني[٣].

(ب) عنايتهما بإيراد أسباب النزول[٤]:

لقد تناول القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه جزءا كبيرا من أسباب نزول الآيات والسور في تفسيره الماتع القيم، ومن أمثلته قوله رحمة الله عليه في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن يهوديًّا قال لعمر بن الخطاب: لو نزلت علينا هذه الآية لاتخذنا ذلك عيدا، فقال عمر: قد علمت في أي يوم نزلت هذه الآية، نزلت بعرفة يوم جمعة»[٥]. كما ذكر رحمة الله عليه سبب نزول آية التيمم في سورة المائدة وهو في قصة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

كذلك نجد الإمام أبا عبدالله القرطبي رحمة الله عليه قد اهتم بهذا المبحث الثري، يقول في معرض بيانه لسبب نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٣).
(٣) لمعرفة ضوابط المكي والمدني، ينظر في الإتقان في علوم القرآن، (١/ ٤٧).
(٤) سبب النزول: هو ما نزل القرآن بشأنه. انظر: دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي، (ص١٥٣).
(٥) أحكام القرآن، (٢/ ٣٩).

مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٣]: «قال الضحاك: نزلت الآية حين فتح مكة»(١) كما ذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة:١١]...(٢).

ومن خلال تلكم الأمثلة التي تم إيرادها يتضح لنا مدى عناية هذين الإمامين الجليلين والعلمين الكبيرين بهذا المبحث من مباحث علوم القرآن.

(جـ) اهتمامهما بإبراز الناسخ والمنسوخ:

إن مبحث الناسخ والمنسوخ يعتبر من أهم موضوعات علوم القرآن وأجلها قدرا وفائدة، فمدار الشريعة الإسلامية مرتكز على هذا المبحث، فالمحكم غير المنسوخ يجب العمل به وتطبيقه، وغير المحكم أي المنسوخ لا يعمل به، وإنما يترك ويبتعد عنه.

ولقد اهتم علماء الشريعة الإسلامية بهذا المبحث وجعلوه شرطا أساسيا في المفسر والمحدث والفقيه؛ ولذا كان من المرتكزات المهمة والدعائم الأساسية التي ركز عليها القاضي أبو بكر بن العربي والإمام أبو عبدالله القرطبي، رحمات الله على الجميع.

ذكر القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [المائدة:١] أنه نسخ بقوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥] في قول المفسرين، ثم بين رأيه

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٥٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ١٠٩-١١٠).

في قضية النسخ المعروضة هنا فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو تخصيص غير نسخ على ما بيناه في القسم الثاني»[١] وهذا يدل على غزارة علمه ودقة فهمه وقوة استنباطه[٢].

كما ذكر رحمة الله عليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة:١٠٥] ما نصه: «قال بعض علمائنا: في هذه الآية غريبة من القرآن ليس لها أخت في كتاب الله تعالى، وذلك أنها آية ينسخ آخرها أولها»[٣].

ومن أمثلة الاهتمام والعناية بمبحث الناسخ والمنسوخ عند الإمام أبي عبدالله القرطبي رحمة الله عليه ما أورده عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [المائدة:١] يقول رحمة الله عليه محررا وجهة نظره حول هذا المقطع من الآية: «وقال قوم: الآية محكمة لم تنسخ وهي في المسلمين»[٤] وتلك آية من آيات رسوخه العلمي وفهمه الدقيق لمعاني كتاب الله جَلَّجَلَالُهُ.

(د) اهتمامهما بمباحث علم القراءات:

لما كان منهج القاضي أبي بكر بن العربي رحمة الله عليه في التفسير قائمًا على بيان الأحكام والمسائل الشرعية المستنبطة من النصوص القرآنية فقد حدد موقفه من القراءات بما يدور حول خدمة هدفه العام، وهو الاستعانة بمبحث

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٢٠).
(٢) لمراجعة هذه المسألة برمتها ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه، للفقيه عبدالرحمن بن علي ابن عبدالله، (ص٣٦٠-٣٦١).
(٣) أحكام القرآن، (٢/ ٢٢٥).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٣٠).

القراءات للوصول إلى الأحكام الشرعية لذا نجده رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتعرض للقراءات بما يحقق مقصوده العلمي الشرعي الإصلاحي، وقد اعتنى بالقراءات الصحيحة المتواترة التي اعتبرها أصلا للوصول إلى استنباط الأحكام الشرعية محتجا بها لصالح مذهبه المالكي مع مناقشة خصومه في المذهب ومن ثم ترجيح ما يراه راجحا في تلك المسألة أو تيك.

ولم يقف ابن العربي عند حد ذكر القراءات بل تعداه إلى توجيهها مرجحا بعض المعاني على بعض، وسوف أنقل على ذلك مثالين اثنين عن القاضي بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

المثال الأول: ذكر القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة:٦] في المسألة الحادية والأربعين ما نصه: «تثبت القراءة فيها بثلاث روايات: الرفع قرأ به نافع، رواه عنه الوليد بن مسلم وهي قراءة الأعمش والحسن، والنصب رواه أبو عبدالرحمن السلمي قال: قرأ علي الحسن والحسين فقرآ قوله تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ فسمع علي ذلك وكان يقضي بين الناس فقال: (وَأَرۡجُلَكُمۡ) بالنصب هذا من مقدم الكلام ومؤخره، وقرأ ابن عباس مثله وقرأ أنس وعلقمة وجعفر بالخفض، وقال موسى بن أنس لأنس: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه فذكر الطهور فقال: اغسلوا حتى ذكر الرجلين وغسلهما وغسل العراقيب والعراقب، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة:٦] قال فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما وقال: نزل القرآن بالمسح وجاءت

السنة بالغسل، وعن ابن عباس وقتادة: افترض الله مسحين وغسلين، وبه قال عكرمة والشعبي، وقال ما كان عليه الغسل جعل عليه التيمم وما كان عليه المسح أسقط واختار الطبري التخيير بين الغسل والمسح وجعل القراءتين كالروايتين في الخبر يعمل بهما إذا لم يتناقضا.

وجملة القول في ذلك أن الله سبحانه عطف الرجلين على الرأس، فقد ينصب على خلاف إعراب الرأس أو يخفض مثله، والقرآن نزل بلغة العرب، وأصحابه رؤوسهم وعلماؤهم لغةً وشرعًا، وقد اختلفوا في ذلك؛ فدل على أن المسألة محتملة لغة محتملة شرعًا، لكن تعضد حالة النصب على حالة الخفض بأن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غسل وما مسح قط»(١).

ففي هذا المثال نجد القاضي أبا بكر بن العربي يستعرض القراءات الواردة في هذه اللفظة ويوجهها مرجحًا في ذلك مذهبه المالكي ومستندًا على ما أثر عن الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقراءة النصب والخفض قراءتان سبعيتان، كل منهما متواترة ثابتة عن رسولنا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

المثال الثاني: ذكر في المسألة السابعة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة:٨٩] ما يلي: يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه ثلاث قراءات: عقدتم بتشديد القاف، وعقدتم بتخفيف القاف، وعاقدتم بالألف، فأما التخفيف فهو أضعفها رواية وأقواها معنى؛ لأنه فعلتم من العقد وهو المطلوب، وإذا قرئ عاقدتم فهو فاعلتم، وذلك يكون من اثنين...، وإذا قرئ عقدتم بتشديد القاف فقد اختلف العلماء في تأويله على أربعة أقوال:

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٧٠-٧١).
(٢) انظر: الإقناع في القراءات السبع، (٢/ ٣٤)، والإشارات الجلية لسالم محيسن، (ص١٢٠).

الأول: قال مجاهد: تعمدتم.

الثاني: قال الحسن: معناه ما تعمدت به المأثم فعليك فيه الكفارة.

الثالث: قال ابن عمر: التشديد يقتضي التكرار، فلا تجب عليه الكفارة إلا إذا كرر اليمين.

الرابع: قال مجاهد: التشديد للتأكيد، وهو قوله: والله الذي لا إله إلا هو.

قال ابن العربي: أما قول مجاهد: ما تعمدتم فهو صحيح يعني ما قصدتم إليه احترازا من اللغو، وأما قول الحسن ما تعمدتم فيه المأثم فيعني به مخالفة اليمين، فحينئذ تكون الكفارة وهذان القولان حسنان يفتقران إلى تحقيق، وهو بيان وجه التشديد، فإن ابن عمر حمله على التكرار، وهو قول لم يصح عنه لضعفه...، وأما قول مجاهد: إن التشديد في التأكيد محمول على تكرار الصفات؛ فإن قولنا: والله يقتضي جميع أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فإذا ذكر شيئا من ذلك فقد تضمنه قوله: والله.

فإن قيل: فما فائدة التغليظ بالألفاظ؟ قلنا: لا تغليظ عندنا بالألفاظ، وقد تقدم بيانه وإن غلظنا فليس على معنى أن ما ليس بمغلظ ليس بيمين، ولكن على معنى الإرهاب على الحالف فإنه كلما ذكر بلسانه الله تعالى حدث له غلبة حال من الخوف، وربما اقتضت له رعدة، وقد يرهب بها على المحلوف له...

والذي يتحصل من ذلك أن التشديد على وجه صحيح؛ فإن المرء يعقد على المعنى بالقصد إليه، ثم يؤكد الحلف بقصد آخر، فهذا هو العقد الثاني الذي حصل به التكرار أو التأكيد، بخلاف اللغو فإنه قصد اليمين وفاته التأكيد بالقصد الصحيح إلى المحلوف عليه.....»[١].

---

(١) أحكام القرآن، (٢/ ١٥٠-١٥١).

وبهذا يتبين لنا دقة القاضي أبي بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونبوغه في هذا الفن[(١)].

كذلك نجد مثل هذا الاهتمام والعناية بهذا المبحث الفريد من مباحث علوم القرآن عند الإمام أبي عبدالله القرطبي رحمة الله عليه، فقد أورد جزءا كبيرا في كتابه الماتع، حيث نقل القراءات الصحيحة المتواترة وعزاها إلى أصحابها وقام بتوجيهها، بل إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ رد على بعض النحاة الذين رفضوا بعض تلكم القراءات بحجة عدم موافقتها لمذهبهم النحوي.

وقد ذكر رحمة الله عليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ في المسألة الثالثة عشرة القراءات الواردة في قوله (وأرجلكم) وعزاها إلى أصحابها وقام بتوجيهها وبنى على ذلك حكمًا فقهيًّا[(٢)].

كما ذكر في المسألة الأولى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤] ما يلي:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقراءة أهل المدينة والشام «من يرتدد» بدالين، والباقون «من يرتد» وهذا من إعجاز القرآن»[(٣)].

وقال في المسألة الخامسة عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة:٤١]: «قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي

(١) لمراجعة القراءات الواردة في هذه اللفظة، ينظر في: كتاب الإقناع في القراءات السبع، (٢/ ٦٣٥)، الاختيار في القراءات العشر للبغدادي، (١/ ٣٦٨).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٦١-٦٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٠٦).

(**لا يُحزِنك**) والباقون بفتح الياء وضم الزاي، والحزن، والحزن خلاف السرور، وحزن الرجل بالكسر فهو حزن وحزين، وأحزنه غيره، وحزن أيضا مثل أسلكه وسلكه»[١].

ومـن تتبع هذا المبحث من خلال هذين التفسـيرين القيمين وجد العجب العجـاب، والـكلام يطـول حولـه؛ لأن هناك تفصيـلات دقيقة أضربـت عنها صفحا حتى لا يطول بنا المقام، وما رمته في هذا المبحث هو بيان مدى عناية كل مـن القـاضي أبي بكر بن العـربي والإمام أبي عبدالله القرطبـي رحمات الله عليهما بمبحث علم القراءات وإيرادهما له كثيرًا، والله أعلى وأعلم[٢].



(١) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ١٧٢).

(٢) بالنسبة للقراءات الواردة في الآيتين الأخيرتين، ينظر: الإرشادات الجلية لسالم محيسن، (ص١٢٥-١٢٦)، الاختيار في القراءات العشر، لأبي محمد عبدالله بن علي الحنبلي البغدادي، (١/ ٣٦٨)، الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، (ص٣٢)، إملاء ما من به الرحمن من وجوه القراءات والإعراب في جميع القرآن للعكبري، (١/ ٢١٥-٢١٩).

المبحث الثالث

اهتمامهما باللغة العربية



(أ) النحو العربي:

يعتبر علم اللغة العربية أصلا من الأصول التي يقوم عليها تفسير القرآن الكريم؛ لأنه الكلام الإلهي الذي أنزل بلسان عربي مبين، فلا عجب إذن أن تكون اللغة العربية مفتاح معانيه وباب تفسيره؛ ولذا أجمع العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن يتصدى لتفسير كتاب الله مالم يكن عالما بلغة العرب، فقد روي عن الإمام مالك رحمة الله عليه قوله: «لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالًا»(١) وقال الإمام مجاهد رحمة الله عليه: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغة العرب»(٢).

وقد أدرك أهمية وضرورة اللغة العربية رجال المدرسة الأندلسية في التفسير؛ إذا إنهم ولدوا في بيئة تهتم باللغة وتلقنها أول ما تلقنها لأطفالهم مع القرآن(٣) ولهذا يقول العلامة ابن خلدون رحمة الله عليه: «وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم، وكثر رواية الشعر والترسل، ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها، فكانوا لذلك أهل حظ وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي، (١/ ٢٩٢).

(٢) المصدر السابق، (١/ ٢٩٢).

(٣) انظر: منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، للدكتور فهد الرومي، (ص٣٧).

من بعد تعليم الصبي، ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس، قال: لأن الشعر ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة، ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة»[(١)].

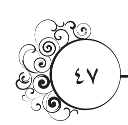
ومن بين رجال هذه المدرسة الأندلسية العريقة صاحبنا الجليل القاضي أبو بكر بن العربي فلقد اهتم باللغة العربية من نحو واشتقاق، إلا أن عنايته جاءت بقدر، الأمر الذي يجد الباحث صعوبة معه أثناء البحث عن المسائل النحوية والقضايا اللغوية التي تناولها في تفسيره فلا تبدوا ظاهرة كما هي الحال عند غيره من المفسرين الأندلسيين كابن عطية والقرطبي وأبي حيان رَحِمَهُمُ اللَّهُ[(٢)] وإنما نجده تناول في تفسيره بعض القضايا اللغوية والمسائل النحوية التي لها تعلق بغرضه وهدفه الذي توخاه، وأعني بذلك استنباط مسائل الأحكام والتعصب في ذلك لمذهبه المالكي.

وكذلك نجد صاحبنا الثاني الإمام الجليل أبا عبدالله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه ركز جهده أيضا على استنباط الأحكام الفقهية من النصوص القرآنية حتى جاء تفسيره متميزا بالطابع الفقهي شأنه في ذلك شأن تفسير ابن العربي، وعلى الرغم من هذا الطابع الذي تميز به تفسير القرطبي فإنه كان يعنى في بيان آيات القرآن وما تحمله ألفاظها من مدلولات ومعاني على اللغة العربية ضرورة أن هذا القرآن نزل بلغة العرب.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، (١/ ٧٤٢).

(٢) انظر: مدرسة التفسير في الأندلس لمصطفى إبراهيم المشيني، (ص٣٢٩).



نقل الإمام أبو عبدالله القرطبي في مقدمة تفسيره أحاديث وأخبارا دلت في مجموعها على مدى عنايته واهتمامه باللغة العربية كشرط من الشروط الواجب توافرها في المفسر إذا قصد تفسير كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك صونًا من تحريف الكلم عن مواضعه ودرءا للخروج على مراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، هذا وقد نهج القرطبي في عرضه لأبحاث اللغة في كتابه التفسير نهجا فريدا، فكان يذكر معاني ألفاظ القرآن ثم يبحث في أصولها واشتقاقها مستشهدا على ذلك بما ورد من أشعار العرب، وبعد ذلك يذكر ما ورد في اللفظ من أوجه الإعراب واختلافات النحويين(١) وفيما يلي بيان بعض الأمثلة من الكتابين.

ذكر القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه أوجه الإعراب من دون ذكر لمذاهب نحاة البصرة والكوفة ومن دون عزو للأقوال إلى أصحابها في المسألة الثامنة عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة:٣] ذكر ثلاثة أقوال في الاستثناء:

الأول: أنه منقطع عما قبله.

الثاني: أنه متصل.

الثالث: أن الاستثناء يرجع إلى التحريم، لا إلى المحرم، ويبقى على ظاهره، ثم رجح رحمة الله عليه القول الأول(٢).

كما ذكر أوجه الإعراب عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ [المائدة:١٠٧] وحصرها في أربعة أقوال، ثم ذكر الراجح عنده بدليله(٣).

أما الإمام أبو عبدالله القرطبي فإنه يذكر أحيانًا أقوال النحاة دون ترجيح أو رد، ولعله في هذه الحالة يرتضيها جميعًا، وأحيانًا أخرى يذكر أقوالهم ويرجح

---

(١) مدرسة التفسير في الأندلس، (ص٣٩٣-٣٩٥).

(٢) أحكام القرآن، (٢/ ٢٣-٢٥).

(٣) أحكام القرآن، (٢/ ٢٤٩-٢٥٠)، إملاء ما من به الرحمن للعكبري، (١/ ٢٠٦).

ما يراه راجحًا مدعمًا ذلك بالشعر العربي وما ورد سماعًا، وأحيانًا يذكر بعض آراء النحاة الواردة في الآية ويردها لضعفها وشذوذها(١).

فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٤] يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسألة الخامسة عشرة: «اختلف النحاة في (من) في قوله: (مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ) فقال الأخفش: هي زائدة كقوله: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩٩] وخطأه النحويون، وقالوا: من لا تزاد في الإثبات، وإنما تزاد في النفي والاستفهام، وقوله:(من ثمره) وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]، ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف:٣١] للتبعيض، أجاب فقال: قد قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧١] بإسقاط من، فدل على زيادتها في الإيجاب، أجيب بأن من هنا للتبعيض؛ لأنه إنما يحل من الصيد اللحم دون الفرث والدم، قلت: هذا ليس بمراد ولا معهود في الأكل فيعكر على ما قال، ويحتمل أن يريد «مما أمسكن «أي: مما أبقته الجوارح لكم، وهذا على قول من قال لو أكل الكلب الفريسة لم يضر وبسبب هذا الاحتمال اختلف العلماء في جواز أكل الصيد إذا أكل الجارح منه على ما تقدم»(٢).

(ب) الاشتقاق:

لقد اهتم القاضي أبو بكر بن العربي والإمام أبو عبدالله القرطبي بمسألة الاشتقاق اللغوي اهتماما بالغا، يقول القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه عند تفسير قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١] في المسألة الخامسة ما يلي:

---

(١) مدرسة التفسير في الأندلس، (ص٤٠٥-٤٠٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٧٣).

«يقال وفى وأوفى، قال أهل العربية: واللغتان في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١] ثم استدل ببيت من الشعر على هذا وبقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧] وبقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من وفى منكم فأجره على الله**»[(١)]»[(٢)].

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٢] في المسألة الأولى: «وزنها فعائل واحدتها شعيرة، فيها قولان: أحدهما: أنه الهدي، والثاني: أنه كل متعبد منها الحرام...، وقال علماء النحويين: هو من أشعر، أي: أعلم، وهذا فيه نظر، فإن فعيلا بمعنى مفعول بأن يكون من فعل لا من أفعل، ولكنه جرى على غير فعله كمصدر جرى على غير فعله»[(٣)].

كما ذكر عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢] في المسألة الثالثة ما يلي:

قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه: «وهو فعيل بمعنى فاعل، أي: يعرف بها عند من كلف أن يعرف ما عنده، ومن حديث وفد هوازن أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب فقال: «**أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين، وإني رأيت أن أرد عليهم سبيهم... فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**»[(٤)]... واشتقاقه: يقال: نقب الرجل على القوم ينقب إذا صار نقيبًا، وما كان الرجل نقيبًا ولقد نقب وكذلك عرف عليهم إذا صار عريفًا ولقد عرف،

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، (١/ ١١).
(٢) أحكام القرآن، (٢/ ٥).
(٣) أحكام القرآن، (٢/ ١٩).
(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، (٤/ ١٣١).

وإنما قيل له نقيب؛ لأنه يعرف دخيلة أمر القوم ومناقبهم، والمناقب تطلق على الخلقة الجميلة وعلى الأخلاق الحسنة»[١].

ومثله في ذلك الإمام القرطبي رحمة الله عليه فقد تعرض لمسألة الاشتقاق اللغوي وذكر عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة:٢] في المسألة الأولى ما يلي:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشعائر جمع شعيرة على وزن فعيلة، وقال ابن فارس: ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن، والشعيرة البدنة تهدى وإشعارها أن يجز سنامها حتى يسيل منه الدم فيعلم أنه هدي، والإشعار الإعلام من طريق الإحساس يقال: أشعر هديه، أي جعل له علامة ليعرف أنه هدي، ومنه المشاعر المعالم واحدها مشعر وهي المواضع التي قد أشعرت بالعلامات، ومنه الشعر؛ لأنه يكون بحيث يقع، ومنه الشاعر؛ لأنه يشعر بفطنته لما لا يفطن له غيره، ومنه الشعير لشعرته التي في رأسه»[٢].

فأنت هنا تجد الإمام أبا عبدالله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تعرض لجميع اشتقاقات هذه اللفظة (الشعائر) ونقل كلام أحد أئمة اللغة الكبار، وهو الإمام ابن فارس رحمة الله عليه، وفي هذا دليل بين على مدى عنايته بهذا المبحث اللغوي والاستعانة به لمعرفة مراد الله جَلَّجَلَالُهُ في كتابه العزيز.

(جـ) الاستعانة بالشواهد الشعرية:

لقد تركزت معظم الشواهد الشعرية عند القاضي أبي بكر بن العربي رحمة الله عليه حول معنى توضيح الألفاظ القرآنية الكريمة[٣] ومن أمثلته ما يلي:

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٨٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٣٧).
(٣) مدرسة التفسير في الأندلس، (ص٣٤٧).

ذكر القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١] في المسألة السابعة في معرض تنقيح قول الإمام ابن جرير الطبري رحمة الله عليه ما يلي: قال: «وذلك أن أصل عهد في اللغة: الإعلام بالشيء، وأصل العقد الربط... قال الشاعر[(١)]:

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا»[(٢)]

ومثله الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه، فقد استخدم الشعر في تفسيره كثيرًا، ولو أراد باحث أن يتقصى ذلك وأن يحصره لضاق ذرعا، وضاقت مجموعة من الرسائل عن استيعابه، ففي الكتاب ثروة كبيرة من الأشعار، ولا أكون مبالغًا إذا قلت: إنه يوجد في كل آية عدد كبير من الأبيات الشعرية.

وكان القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر الشعر لأغراض مختلفة، فتارة يذكره لبيان معنى لغوي، وتارة يذكره للاستدلال على قاعدة نحوية أو بلاغية، أو للاستدلال على توجيه رأي في الإعراب أو غير ذلك[(٣)].

ومن أمثلته لبيان معنى لغوي: ما أورده من قول الشاعر عند تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]: «... قال الحطيئة:

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا»[(٤)]

ومن أمثلته للاستدلال على قاعدة نحوية ما ذكره عند تفسير قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾ [المائدة:٢]

---

(١) هو الحطيئة جرول بن أوس، شاعر مخضرم. انظر: الأعلام للزركلي، (٢/ ١١٨).
(٢) أحكام القرآن، (٢/ ٧).
(٣) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٢٦٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٣١-٣٢).

يقول الإمام القرطبي رحمة الله عليه في المسألة الثانية عشرة: «أي لا يحملنكم، عن ابن عباس وقتادة وهو قول الكسائي وأبي العباس، وهو يتعدى إلى مفعولين، يقال: جرمني كذا على بغضك أي حملني عليه، قال الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا»[1]

أي: حملت فزارة بعدها أن يغضبوا.



(١) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٤٤).

المبحث الرابع

اهتمامهما بعرض المباحث الأصولية

مبحث تأخير البيان عن وقت الحاجة



إن معرفة أصول الفقه من الأمور الضرورية التي يحتاج إليها المفسر، فلا يمكن له أن يلم بجميع شتات التفسير إذا لم يكن بارعا في الأصول؛ لأنه يحتاج إليه عند مناقشة الأدلة وعند الترجيح والتعارض، ولذلك نجد العلماء اهتموا بهذا الفن اهتماما لا نظير له.

ومن جملة أولئك كبير المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمة الله عليه، فإنه لم يهمل هذا الجانب، وكذلك الحافظ ابن كثير رحمة الله عليه، وفي ذلك دليل على دقة هذا العلم وأهميته، فالكل محتاج إليه إذ يستحيل الترجيح بدون معرفة فن أصول الفقه.

ولقد اهتم صاحبنا القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه بهذا العلم، فتناول الكثير من مباحثه الأصولية في تفسيره القيم، ومثله الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه، حيث ذكر كثيرا من أدلته وقواعده، وعند عرضه للأحكام الفقهية بين كيف تبنى الفروع على الأصول، وفي بعض الأحيان يتطرق إلى ما دار من خلافات بين المذاهب الفقهية حول تلك القواعد والأدلة[(١)].

فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] ذكر القاضي أبو بكر بن العربي والإمام أبو عبدالله

(١) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٤٧-٥٠).

القرطبي رحمات الله عليهما عند هذه الآية ما يلي: «يحتمل إلا ما يتلى عليكم الآن، أو إلا ما يتلى عليكم فيما بعد من مستقبل الزمان، وفي هذا دليل على جواز تأخير البيان عن وقت لا يفتقر فيه إلى تعجيل الحاجة، وهي مسألة أصولية»[١] وهما يشيران بهذا إلى مبحث أصولي مهم من مباحث علم أصول الفقه، وهو مبحث تأخير البيان عن وقت الحاجة[٢].



---

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٨٩)، الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٥).

(٢) لمراجعة هذا المبحث في المدونات الأصولية، ينظر في مذكرة أصول الفقه للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، (ص١٨٣-١٨٤)، روضة الناظر وجنة المناظر، لا بن قدامة، (٢/ ٥٧).

المبحث الخامس

اهتمامهما بعرض الأحكام الفقهية

لقد اهتم علماء المدرسة الأندلسية بالأحكام الفقهية بالعرض والتوجيه والدقة والتحري في النقل والمقارنة مع الانتصار لمذهبهم الذي يتمذهبون به، وهو المذهب المالكي، ولقد تفاوت المفسرون الأندلسيون في عنايتهم هذه بالأحكام الفقهية، فنجد ابن العربي يتناول الأحكام الفقهية المستنبطة من القرآن الكريم بالعرض والتوجيه والمناقشة والمقارنة بين آراء مذهبه وبين الآراء في المذاهب الأخرى بصورة مطولة مستفيضة، حتى غدا كتابه مرجعا فقهيا لمذهب الإمام مالك.

كذلك القرطبي سلك نفس طريق ابن العربي، ولكن بصورة أطول واستفاضة أشمل، فعرض لآراء مذهب الإمام مالك بالإضافة إلى استعراض آراء المذاهب الأخرى مقارنا بينها متحريًا منها ما يستند إليه الدليل أو يرجحه الجمهور[(١)].

أما التزام رجال المدرسة الأندلسية للمذهب المالكي وإبرازهم لآرائه وتأييدهم لأقواله، أو حتى الاقتصار عليها دون التعرض كثيرا للمذاهب الأخرى عند بعضهم، فشأنهم في هذا شأن علماء المذاهب الأخرى، ولا يعيبهم هذا فقد عاشوا في بيئة التزمت المذهب المالكي وتبنته ودرسه علماؤها وتلقوه عن مشايخهم ولم يجدوا فيه ما يوجب الإعراض عنه، ليس عن تقليد محض، وإنما بعد علم، ومع هذا فقد كان لهم حتى ابن العربي ميل وتأييد للمذاهب الأخرى[(٢)].

(١) مدرسة التفسير في الأندلس، (ص٤٧٣).

(٢) منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، صفاته وخصائصه، (ص٣١).

أما ما يتعلق بموقفهم من المذاهب الفقهية الأخرى فيمكن تلخيصه في نقطتين:

الأولى: موقف القبول:

موقفهم من المذاهب الفقهية الثلاثة غير المذهب المالكي الحنفي والشافعي والحنبلي القبول، وإيراد أقوالهم وأدلتهم ومناقشتها وترجيحها أحيانًا على المذهب المالكي، وإن كان ذلك قليلًا، ولا عجب في هذا فهذه المذاهب الأربعة قد تلقتها الأمة بالقبول وأقرتها، وما سواها فغالبا ما يكون لفرقة انحرفت في الأصول فاستقلت في الفروع بمذهب كالرافضة والخوارج والإباضية وغيرهم...

الموقف الثاني: موقف الرفض والإنكار:

وكان هذا الموقف مع الظاهرية والشيعة والرافضة والخوارج، فقد رفض رجال المدرسة هذه المذاهب الثلاثة، ولم يوردوا أقوالهم غالبا إلا على سبيل الرد والإنكار والإبطال.

رفضت المدرسة المذهب الظاهري، فهذا ابن العربي يقول عن الظاهرية عامة وعن ابن حزم خاصة[1]: «وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان في بادية إشبيلية يعرف بابن حزم، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب إلى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة، يضع ويرفع ويحكم ويشرع، وينسب إلى دين الله ما ليس فيه»[2] وقال عن الظاهرية أنها: «أمة سخيفة تسورت على

(١) منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، صفاته وخصائصه، (ص٣٤).
(٢) تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، (٣/ ٢٢٨).

مرتبة ليست لها، وتكلمت بكلام لم تفهمه»[١] وقال عن الإمام داود الظاهري رحمة الله عليه: «وأما داود فإنا لم نراع خلافه»[٢].

ولكننا لا نوافق القاضي أبا بكر بن العربي على ما قاله في حق الإمام ابن حزم الظاهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذلك الإمام داود الظاهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهما أرفع قدرًا وأعظم شأنًا، ووطأتهما في مسائل العلم ثقيلة، ولا يمكن إنكار جهدهما ومرتبتهما في العلم والفضل، ومن أراد الوقوف على شخصية الإمام بن حزم العلمية فليراجع كتاب: ابن حزم الكبير، للدكتور عمر فروخ رحمة الله عليه، فإنه عظيم النفع والإفادة.

وسوف أسطر لك في هذه العجالة منهج كل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام أبي عبدالله القرطبي في عرض المسائل والقضايا الفقهية.

أما القاضي بن العربي فإنه يذكر السورة ثم عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ في شرحها آية، آية، ومن هنا يعتبر كتابه مرجعا من المراجع الفقهية المتكاملة؛ لأنه صب اهتمامه على استنباط الأحكام الفقهية وعرضها ومناقشتها، وبهذا يمكن القول بأن كتابه قد غلب عليه الطابع الفقهي[٣].

فالقاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه يستنبط الأحكام الفقهية ويعتمد في ذلك على دلالات الألفاظ، كما ذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ ﴾ [المائدة:٩٥] يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسألة الثانية: «والقتل كل

(١) المصدر السابق، (٣/ ٢٢٨).
(٢) أحكام القرآن، (١/ ٢٣٤).
(٣) انظر: مدرسة التفسير في الأندلس، (ص٤٧٤).

فعل يفيت الروح، وهو أنواع: منها الذبح والنحر والخنق والرضخ وشبهه، فحرم الله تعالى على المحرم في الصيد كل فعل يكون مفيتًا للروح، وحرم في الآية الأخرى نفس الاصطياد فقال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة:٩٦] فاقتضى ذلك تحريم كل فعل يتعلق بعين الصيد؛ لأن التحريم ليس بصفة للأعيان والذوات، وإنما هو عبارة عن تعلق خطاب الشارع بالأعيان، فالمحرم هو القول فيه: لا تقربوه، والواجب هو المقول فيه لا تتركوه كما بيناه في أصول الفقه»[1].

وأحيانًا نجده يفاضل القول في مذهب مالك كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤] فيقول رحمة الله عليه في المسألة السابعة: «إن أكل الكلب ففيها روايتان: إحداهما: أنها لا تؤكل، وبه قال أبو حنيفة وللشافعي قولان: أحدهما مثله والثاني: يؤكل والروايتان مبنيتان على حديثي عدي وأبي ثعلبة، وحديث عدي أصح، وهو الذي يعضده ظاهر القرآن... وقال علماؤنا: الأصل في الحيوان التحريم لا يحل إلا بالذكاة والصيد، وهو مشكوك فيه، فبقي على أصل التحريم، وقال آخرون منهم القول الثاني؛ لأن ذلك لو كان معتبرا لما جاز البدار إلى هجم الصيد من فم الكلب، فإنا نخاف أن يكون أمسك على نفسه ليأكل، فيجب إذا التوقف حتى نعلم حال فعل الكلب به، وذلك لا يقول به أحد، وأيضا فإن الكلب قد يأكل لفرط جوع أو نسيان، وقد يذهل العالم النحرير عن المسألة فكيف بالبهيمة العجماء أن تستقصي عليها هذا الاستقصاء، وقد أخذنا أطراف الكلام في مسائل الخلاف على المسألة فلينظر هناك»[2].

---

(١) أحكام القرآن، (٢/ ١٧٣).
(٢) أحكام القرآن، (٢/ ٣٥).

كذلك نجده يتعرض لمذاهب الفقهاء مع أدلتهم، ويناقش ثم يرجح ما يراه راجحا، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة:٩٥] يقول القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه في المسألة السابعة: «عام في كل صيد كان مأكولًا أو غير مأكول، سبعا أو غير سبع، ضاريًا أو غير ضار، صائلًا أو ساكنًا، بيد أن العلماء اختلفوا في خروج السباع عنه وتخصيصه منها، فقال علماؤنا: يجوز للمحرم قتل السباع العادية المبتدئة بالمضرة كالأسد والنمر والذئب والفهد... وقال أبو حنيفة بقولنا في الكلب العقور والذئب والغراب والحدأة، وخالفنا في السبع والفهد والنمر وغيرها من السباع فأوجب على المحرم الجزاء بقتلها، وقال الشافعي: كل مالا يؤكل لحمه فلا جزاء فيه إلا السمع وهو المتولد بين الذئب والضبع، ودليلنا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خمس ليس على المحرم في قتلهن جناح** «وفي رواية: «**يقتلن في الحل والحرم: الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور**» وفي رواية: «**الحية والكلب العقور**» [خرجه الأئمة بأجمعهم]، وفيه: «**الغراب الأبقع**» [خرجه مسلم]، وفيه: «**السبع العادي**» [خرجه أبو داود والترمذي]، وهذا تنبيه على العلة وعلى الأجناس...»[١] ثم رد على الإمام أبي حنيفة النعمان رحمة الله عليه، وناقش أدلة كل من الإمامين أبي حنيفة والشافعي رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

أما الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه فقد اقتصر أحيانا على ذكر مذهب الإمام مالك وبعض فقهاء المالكية، وتارة يكتفي بالعرض والتوجيه لهذه الآراء دون التعقيب عليها أو مناقشتها، ولعله في تلك الحالة يكون قد ارتضاها[٢].

---

(١) أحكام القرآن، (٢/ ١٧٥-١٧٧).

(٢) القرطبي ومنهجه في التفسير، (ص٣١٩).

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣] يقول الإمام القرطبي رحمة الله عليه في المسألة الحادية عشرة: «وقال مالك وجماعة: لا تصح الذكاة إلا بقطع الحلقوم والودجين، وقال الشافعي: يصح بقطع الحلقوم والمريء ولا يحتاج إلى الودجين؛ لأنهما مجرى الطعام والشراب الذي لا يكون معهما حياة، وهو الغرض من الموت، ومالك وغيره اعتبروا الموت على وجه يطيب معه اللحم ويفترق فيه الحلال وهو اللحم من الحرام الذي يخرج بقطع الأوداج، وهو مذهب أبي حنيفة وعليه يدل حديث رافع بن خديج رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه»**(١) وحكى البغداديون عن مالك أنه يشترط قطع أربع: الحلقوم والودجين والمريء، وهو قول أبي ثور، والمشهور ما تقدم، وهو قول الليث»(٢) وهذا المثال يعتبر نموذجًا واضحًا للدراسات الفقهية المقارنة عند الإمام أبي عبدالله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ح (٥٥٤٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٥٢).

المبحث السادس

اهتمامهما بعرض المباحث العقدية



لقد اهتم كل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام أبي عبدالله القرطبي بإيراد الأحكام والمسائل العقدية اهتماما بالغا، وما ذاك إلا لأهمية العقيدة، فالعقيدة أساس كل شيء وأصله ولذا يقول الشاعر:

إن العقيدة للحياة فإن ضاعت فكل حياة بعدها عدم.

لذا كانت مدرسة التفسير في الأندلس حربًا على المعتزلة وأفكارهم لا يعرضون لتفسير آية فيها للمعتزلة تأويل أو تحريف إلا بينوه وكشفوه، وأبطلوا أدلتهم وشنعوا عليهم، ولم تمنعهم مكانة تفسير الزمخشري وعنايتهم وإعجابهم به من رد آرائه وإبطالها في مسائل العقيدة(١).

ومن ذلك ما أورداه عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [المائدة:٣] يقول القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه في المسألة التاسعة عشرة: «فإن قيل: فالفأل والزجر كيف حالهما عندك، قلنا أما الفأل فمستحسن باتفاق، وأما الزجر فمختلف فيه، والفرق بينهما أن الفأل فيما يحسن، والزجر فيما يكره... وإنما نهى الشارع عن الزجر لئلا تمرض به النفس ويدخل على القلب فيه الهم، وإلا فقد ورد ذلك في الشرع عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأسماء والأفعال»(٢).

ويقول الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه في المسألة التاسعة عشرة: «وليس من هذا طلب الفأل، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعجبه أن يسمع: «**يا راشد**

---

(١) منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، (ص٢٣-٢٤).

(٢) أحكام القرآن، (٢/ ٣١).

يا نجيح» أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب، وإنما يعجبه الفأل لأنه تنشرح له النفس وتستبشر بقضاء الحاجة وبلوغ الأمل فيحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ...»[١].

وأيضا، فإنهما اهتما بالرد على أصحاب الفرق الضالة كالقدرية والمعتزلة والرافضة والخوارج والصوفية، فقد قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه عن القدرية: «فأما القدرية فلا شك في كفرهم... قال مالك: لا يصلى على موتاهم ولا تعاد مرضاهم»[٢].

وقال عن الصوفية: «المخلص يسجد لله محبة، وغيره يسجد لابتغاء عوض أو لكشف محنة فهو الذي يسجد كرها، وغرض الصوفية ساقط... فما عبد الله نبي مرسل ولا ولي مكمل إلا طلب النجاة»[٣].

وقال الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه عن القرامطة: «الصحيح القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، ويستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتد»[٤] ورد على الكرامية في قوله: «ففي هذا رد على الكرامية حيث قالوا إن الإيمان قول باللسان، وإن لم يعتقد القلب... وهذا منهم قصور وجمود وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد... فما ذهب إليه محمد بن كرام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد»[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٤١).

(٢) أحكام القرآن، (١/ ٢٩٤).

(٣) المصدر السابق، (٣/ ١٠٩٨-١٠٩٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٢/ ١٤).

(٥) المصدر السابق، (١/ ١٩٣).

الفصل الثالث

أوجه الاختلاف بين الإمامين

وتحته ستة مباحث:

المبحث الأول: طريقة كل منهما في الترجيح.

المبحث الثاني: ابن العربي يقرر الحكم عن طريق الحوار والمناقشة خلافا للقرطبي.

المبحث الثالث: القرطبي يهتم بالتفسير التحليلي أكثر من ابن العربي.

المبحث الرابع: ابن العربي يشن حملات قاسية على مخالفيه، وموقف القرطبي منها.

المبحث الخامس: موقف كل من ابن العربي والقرطبي من الأحاديث التي يوردانها.

المبحث السادس: ابن العربي يورد بعض الإشكالات ويجيب عنها، خلافًا للقرطبي.

المبحث الأول

طريقة كل منهما في الترجيح

إن من أوجه الاختلاف بين هذين الإمامين والعلمين الكبيرين ما يلي:

أولا: لقد كان لكل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام أبي عبدالله القرطبي طريقة خاصة في الترجيح، فابن العربي يورد أقوال الفقهاء الواردة في المسألة التي يريد الكلام عليها ثم أدلتهم، ثم يناقش بعد ذلك ويرجح مذهبه المالكي في كثير من الأحيان، والمتأمل في تفسيره يجد ذلك جليا وواضحا، وإن كان في بعض الأحيان يرجح غير مذهبه، وذلك قليل.

أما الإمام القرطبي فإنه يورد أقوال الفقهاء في المسألة مع أدلتهم، ويناقش كل قول بعد دليله، ثم يختار الراجح عنده بدليله، ولا يتعصب لمذهبه المالكي كما يفعل القاضي أبو بكر بن العربي.

ثانيًا: القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه يتعصب لمذهبه المالكي، ويرد على المخالف بعبارات قاسية ولاذعة، كما ورد عند تفسير آية الوضوء عند الكلام على المسألة التاسعة[1].

أما الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه، فإنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يخالف مالكًا في كثير من الأحيان، ويرد على مخالفيه بأدب جم وأسلوب سلس جميل.

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٥٠-٥١).

المبحث الثاني

ابن العربي يقرر الحكم عن طريق الحوار والمناقشة خلافًا للقرطبي



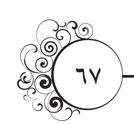
لقد نهج القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه عند تقرير الأحكام الفقهية والمباحث الأصولية والعقدية منهج الحوار والمناقشة، فنجده يقول مثلا: فإن قال لنا قائل كذا وكذا قلنا كذا وكذا، يقول رحمة الله عليه عند تفسير آية الوضوء في المسألة التاسعة: «فإن قيل: فهل يتكرر الحكم بتكرر الشرط أم لا، فإن قلتم بتكرره أحلتم، وإن قلتم لا يتكرر فما وجهه؟ قلنا: من المتعجرفين من تكلف فقال: إنما يتكرر بتكرر العلة، وهو الحدث، وهذا لا يصح»(١).

وهذا الملحظ لم أجده عند الإمام أبي عبدالله القرطبي، وإن كان يتعرض لأقوال الفقهاء بالعرض والتوجيه والمناقشة والترجيح، والعلم عند الله تعالى.



---

(١) المصدر السابق، (٢/ ٥١).



المبحث الثالث

القرطبي يهتم بالتفسير التحليلي أكثر من ابن العربي

مما لفت نظري وأنا أقرأ في هذين السفرين القيمين: عناية الإمام أبي عبدالله القرطبي بالتفسير التحليلي أكثر من القاضي أبي بكر بن العربي، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ركز جهده على تفسير آيات الأحكام أكثر من غيره، فلا يسهب في المباحث النحوية والصرفية والأصولية إلا بقدر ما يستفيد منها في تحقيق هدفه العام، وهو تفسير آيات الأحكام.

أما الإمام أبو عبدالله القرطبي فقد اهتم بالتفسير التحليلي اهتماما بالغا، فقلما يتجاوز آية إلا ويذكر ما تعلق بها من المباحث الأصولية والنحوية والصرفية وغيرها، ومن تأمل في الكتابين يجد هذا الملحظ جليا واضحا.

وانظر لتفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣] عند كل منهما من خلال كتابه تجد شاهد ما قلناه.



المبحث الرابع

ابن العربي يشن حملات قاسية على مخالفيه، وموقف القرطبي منها



لقد كان القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه شديد التعصب لمذهبه المالكي، ولم يكن عف اللسان مع الأئمة ولا مع أتباعهم(١).

وفي المقابل نجد هذه النزعة، أعني نزعة التعصب عند الإمام أبي عبدالله القرطبي منعدمة جدًّا، بل يدافع عمن يشن عليهم ابن العربي حملاته القاسية، بل ويسوق عبارات ابن العربي ويرد عليه تعصبه ويعيبه على ذلك، مع أن كلا منهما يعتبر إمامًا من أئمة المالكية وقطبًا من أقطابها.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [المائدة:١٠١] يقول الإمام أبو عبدالله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن العربي: اعتقد قوم من الغافلين تحريم أسئلة النوازل حتى تقع تعلقا بهذه الآية، وليس كذلك...، قلت: قوله: اعتقد قوم من الغافلين، فيه قبح، وإنما كان الأولى به أن يقول: ذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل، لكنه جرى على عادته»(٢).

فالذي يعيب المدرسة بتعصب ابن العربي، عليه أن يمدحها بإنصاف القرطبي وردوده على ابن العربي(٣) رحمات الله عليهم أجمعين.

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي، (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٣٠٩).
(٣) منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، (ص٣١).

المبحث الخامس

موقف كل من ابن العربي والقرطبي من الأحاديث التي يوردانها

لقد اهتم كل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام أبي عبدالله القرطبي بهذا المبحث اهتماما كبيرا، فقد قاما بالتنبيه على الأحاديث الصحيحة والضعيفة، بل نجد القاضي ابن العربي يحذر من الأحاديث الضعيفة، فيقول لأصحابه بعد أن بين لهم ضعف الحديث القائل بأن رسول الله ﷺ توضأ مرة، وقال: «**هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به**» وتوضأ مرتين، وقال: «**من توضأ مرتين، مرتين آتاه الله أجره مرتين**» ثم توضأ ثلاثًا، ثلاثًا، وقال: «**هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء أبي إبراهيم**» يقول لهم بعدما بين ضعف هذا الحديث: «وقد ألقيت إليكم وصيتي في كل ورقة ومجلس أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده»(١).

هذا وقد أشار الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه إلى منهجه في مقدمة تفسيره، فقال: «وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها والأحاديث، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرًا لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٢٤١).

من الأئمة الأعلام والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب»[1].

لكن المتأمل يجد عناية القرطبي بهذا المبحث أكثر من بن العربي، وهذا الملحظ يصلح أن يكون وجه اختلاف بين هذين الإمامين الجليلين، مع أن كلًّا منهما قد التزما ذلك على نفسه، ومع ذلك فالقرطبي لا يلتزم بهذا الشرط أحيانًا وإن كان ليس بحاطب ليل.



(١) الجامع لأحكام القرآن، (١/ ٦).

المبحث السادس

ابن العربي يورد بعض الإشكالات ويجيب عنها، خلافًا للقرطبي

لقد أورد القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه في أحكامه عند تفسيره لبعض الآيات جملة حسنة من الإشكالات العلمية، ومن ثم أزال وجه الإشكال فيها، وأبدع في ذلك أيما إبداع.

ومن تلكم الإشكالات العلمية التي ساقها ورد عليها ردًّا علميًّا وافيًا ما ذكره رحمة الله عليه عند تفسير قول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١] في المسألة السابعة.

يقول رحمة الله عليه: «من الغريب أن الله سبحانه قد أخبر عنه أنه ندم وهو في النار، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الندم توبة**»(١) قلنا: عن هذه أجوبة ثلاثة:

١- أن الحديث ليس يصح، لكن المعنى صحيح، وكل من ندم فقد سلم، لكن الندم له شروط، فكل من جاء بشروطه قبل منه، ومن أخل بها أو بشيء منها لم يقبل.

٢- أن معناه ندم ولم يستمر على ندمه، وإنما يقبل الندم إذا استمر.

---

(١) أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه، رقم ح (٤٢٥٢) والإمام أحمد في المسند، (١/ ٣٧٦)، والإمام البيهقي في السنن الكبرى، (١٠/ ١٥٤)، كما أورده حافظ المغرب ابن عبد البر في كتابه التمهيد، (٤/ ٤٥).

٣- أن الندم على الماضي إنما ينفع بشرط العزم على ألا يفعل في المستقبل»[(١)]

وهو مالم أجده عند الإمام أبي عبدالله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبهذا يتضح لنا سعة علم القاضي أبي بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفهمه العميق لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا.



---

(١) أحكام القرآن، (٢/ ٨٧-٨٨).



الخاتمة

وتشتمل على:

* أهم نتائج الدراسة.
* فهرس المصادر والمراجع.
* فهرس المحتويات.

الخَاتِمَة

وتشتمل على أهم نتائج الدراسة



في ختام هذه الرحلة العلمية الماتعة أجمل بعض النتائج التي توصلت إليها في النقاط التالية:

أولًا: عظمة الإسلام وقوته إذ استطاع في سنوات معدودة تحويل المجتمع الأندلسي إلى مجتمع إسلامي متحضر، ولا تزال تلك الآثار إلى اليوم شاهدة على آثار هذه الحضارة الإسلامية العريقة.

ثانيًا: عناية كل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام أبي عبدالله القرطبي بالتفسير بالمأثور، تجلت في إيرادهما لجزء كبير من تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة النبوية، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، وفي هذا دليل على شرف علمهما ورسوخ قدمهما في علم الشريعة الغراء وعمق إيمانهما بالله جَلَّ وَعَلَا.

ثالثًا: كثيرًا ما يتعصب القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه لمذهبه المالكي بخلاف الإمام أبي عبدالله القرطبي رحمة الله عليه، فقد كان موقفه عكس موقف ابن العربي حيث كان منصفا بحق.

رابعًا: القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه لم يصل به تعصبه إلى الحد الذي يجعله يرفض قول مخالفه إذا كان وجيهًا ومقبولًا، كذلك لم يصل به تعصبه إلى حد يجعله يتغاضى عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي.

خامسًا: الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه لم يكن حاطب ليل، يجمع الأحاديث ويذكرها في تفسيره، بل كان ينقدها نقدا علميا، فيذكر ما قاله أئمة الجرح والتعديل فيها من جهة أسانيدها أو من جهة متونها.

سادسًا: عناية كل من القاضي أبي بكر بن العربي والإمام أبي عبدالله القرطبي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ بالمباحث الأصولية واللغوية.

سابعًا: القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه لا يسهب في عرض المباحث اللغوية خلافا للإمام أبي عبدالله القرطبي رحمة الله عليه.

ثامنًا: الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمة الله عليه اهتم بالتفسير التحليلي أكثر من القاضي أبي بكر بن العربي رحمة الله عليه.

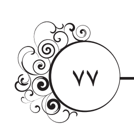
تاسعًا: القاضي أبو بكر بن العربي والإمام أبو عبدالله القرطبي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ يردان على الفرق الضالة من معتزلة وكرامية وقرامطة، ويبينان ضعف ما ذهبوا إليه.

عاشرًا: القاضي أبو بكر بن العربي رحمة الله عليه يورد الكثير من الإشكالات العلمية، ويجيب عنها بأجوبة علمية شافية ووافية وبديعة.

هذه هي أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة العلمية المتواضعة، والله أسأل أن يجعلنا جميعًا هداة مهتدين وقادة للحق مجاهدين غير ضالين ولا مضلين.

وصلى الله وسلم على الهادي البشير والسراج المنير،

وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس المصادر والمراجع

★ الصلة لابن بشكوال، الناشر: مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع.
★ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، الناشر: دار صادر، بيروت.
★ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
★ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، الناشر: مؤسسة الرسالة.
★ مختار الصحاح للرازي، الناشر: مكتبة لبنان.
★ الأعلام للزركلي، الناشر: دار العلم للملايين.
★ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس لأبي نصر الفتح بن محمد ابن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله القيسي الإشبيلي، حققه محمد علي شوابكة، الناشر: دار عمار مؤسسة الرسالة، ط: ١ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
★ التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي، الناشر: مكتبة وهبة.
★ القرطبي ومنهجه في التفسير للدكتور القصبي محمود زلط، الناشر: دار الأنصار.
★ معجم البلدان لياقوت الحموي، الناشر: دار صادر، بيروت.
★ نفح الطيب للمقري التلمساني، الناشر: دار صادر، بيروت.
★ علوم القرآن الكريم للدكتور نور الدين عتر، الناشر: مطبعة الصباح.
★ أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

★ الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبدالله القرطبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

★ تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير، الناشر: دار إحياء التراث الإسلامي.

★ الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي، الناشر: المكتبة العصرية.

★ دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي، الناشر: مكتبة التوبة.

★ مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح، الناشر: دار العلم للملايين.

★ أسباب النزول للإمام الواحدي، الناشر: دار العلم ودار القبلة.

★ جامع البيان عن تفسير آي القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري، الناشر: دار المعرفة.

★ نواسخ القرآن لابن الجوزي، تحقيق ودراسة محمد أشرف علي.

★ ناسخ القرآن ومنسوخه لعبدالرحمن بن علي، الناشر: دار الثقافة الإسلامية.

★ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، الناشر: مكتبة الخانجي.

★ الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية لمحمد محمد سالم محيسن، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية.

★ الإقناع في القراءات السبع لأبي جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري، الناشر: دار الفكر.

★ الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، الناشر: دار الشروق.

★ البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي، الناشر: دار الفكر.
★ إملاء ما من به الرحمن من وجوه القراءات والإعراب في جميع القرآن للإمام العكبري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
★ منهج المدرسة الأندلسية في التفسير، صفاته وخصائصه، للدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي، الناشر: مكتبة التوبة، ط: ١ سنة ١٤١٧هـ.
★ مقدمة ابن خلدون، الناشر: دار القلم.
★ مدرسة التفسير في الأندلس لمصطفى إبراهيم المشني، الناشر: مؤسسة الرسالة.
★ البحر المحيط للإمام أبي حيان الأندلسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
★ مذكرة أصول الفقه للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي.
★ روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة، الناشر: مكتبة المعارف.
★ مراقي السعود، بتحقيق الدكتور محمد المختار الشنقيطي، الناشر: مكتبة ابن تيمية.
★ قوانين الأحكام الشرعية للإمام ابن جزي الغرناطي الكلبي، الناشر: عالم الفكر.
★ صحيح الإمام البخاري بحاشية السندي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
★ سنن الإمام الترمذي، الناشر: مطبعة المدني.
★ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف.

★ القرطبي شيخ أئمة التفسير لمشهور حسن محمود سليمان، الناشر: دار القلم.
★ الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي، الناشر: الدار المصرية.
★ الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب، الناشر: دار المعارف.
★ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي، الناشر: مطبعة السعادة.
★ السنن الكبرى للإمام البيهقي.
★ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، الناشر: المكتب البخاري.



فهرس المحتويات



المؤلف في سطور

د. عبد الرحمن ساكو حسين محمد

كاتب ومؤلف وباحث

عضو الهيئة العالمية للعلماء والباحثين



★من مواليد مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

★وبها درس المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية.

★في عام ٢٠٠٠م حصل على الإجازة العالية الليسانس من كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى.

★في عام ٢٠٠٢م حصل على شهادة الدبلوم العالي في تخصص الدعوة والاحتساب من كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

★في عام ٢٠١٢م حصل على درجة الماجستير في تخصص الفقه المقارن، من كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، بتقدير امتياز عن موضوع رسالته/ أثر المنة في الأحكام الفقهية (دراسة مقارنة).

★في عام ٢٠١٨م حصل على درجة الدكتوراه في تخصص الفقه المقارن وأصوله، من كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، بتقدير مرتبة الشرف الأولى، عن موضوع رسالته/ الإمام علاء الدين السمرقندي فقيهًا وأصوليًا.

★يعيش حاليًا في جمهورية مصر العربية وتركيا، ويساهم في العمل الدعوي، والتدريس والإقراء، ومهتم بقضايا الفكر الإسلامي وتحقيق تراث أعلام منطقة الغرب الإفريقي والنهضة والبعث الحضاري، والدراسات القرآنية، إضافة إلى تخصصه الأكاديمي.

★شارك باحثًا في عدد من المؤتمرات الدولية والندوات العلمية في جمهورية مصر العربية، ونشر عدة أبحاث في مجلات علمية محكمة.

من أعماله:

١- شخصيات فقهية في منطقة الغرب الإفريقي (غينيا كوناكري نموذجًا) الناشر: دار القدس للنشر والتوزيع، ط: ١ سنة ١٤٤٠هـ ٢٠١٩م.

٢- حركات تجديد الفكر الإسلامي بمنطقة الغرب الإفريقي (الأسباب والمجالات والملامح) الناشر: دار القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: ١ سنة ١٤٤١هـ ٢٠١٩م.

٣- تأملات في قصة هدهد نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط: ١ سنة ١٤٤١هـ ٢٠٢٠م.

٤- أثر المنة في الأحكام الفقهية (دراسة مقارنة) الناشر: دار المالكية، تونس، بيروت، ط: ١ سنة ١٤٤٢هـ ٢٠٢٢م، وهو أطروحة علمية لنيل درجة الماجستير في الفقه المقارن.

٥- تأملات في قصة نملة سيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الناشر: دار مفكرون للنشر والتوزيع، ط: ١ سنة ١٤٤٢هـ ٢٠٢١م.

٦- دراسة وتحقيق كتاب اختصار الفتوى فيما عمت به البلوى للعلامة محمد التسليمي الثاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الناشر: دار مفكرون للنشر والتوزيع، ط: ١ سنة ١٤٤٢هـ ٢٠٢١م.

٧- العلامة محمد فودي جابي سيرته وجهوده في خدمة الفقه الإسلامي ط: ١ سنة ١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م الناشر: دار الفردوس للنشر والتوزيع.

٨- شذى الأسماع في فرائد الإمتاع، ط:١ سنة ١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م، الناشر: دار الفردوس للنشر والتوزيع.

٩- دراسة وتحقيق كتاب تعليم الإخوان بعلل أبناء الزمان، للعلامة محمد التسليمي بن العارف بالله محي الدين عبدالقادر الطوبوي الفوتجلي، الناشر: دار الفردوس للنشر والتوزيع، ط: ١ سنة ١٤٤٤هـ ٢٠٢٢م.

١٠- الإمام علاء الدين السمرقندي فقيها وأصوليا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط: ١ سنة ١٤٤٤هـ ٢٠٢٢م.

١١- دراسة وتحقيق كتاب النبذة النافعة (في فقه أحكام الميت من الاحتضار إلى الدفن) للإمام محي الدين عبدالقادر بن الشيخ العارف بالله محمد التسليمي الطوبوي الفوتجلي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١ سنة ١٤٤٥هـ ٢٠٢٣م.

١٢- القلائد من فرائد الفوائد، الناشر: دار الفردوس للنشر والتوزيع، ط: ١ سنة ١٤٤٥هـ ٢٠٢٣م.

١٣- اقتناص الفرائد وادخار الفوائد، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١ سنة ١٤٤٥هـ ٢٠٢٣م.

١٤- الدكتور محمد الأمين جابي شاعرًا ومؤرخًا وأديبًا روائيًّا في ضوء مؤلفاته (دراسة واستعراض) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١ سنة ١٤٤٥هـ ٢٠٢٤م.

١٥- مختارات من عيون الشعر والنثر العربي الإفريقي، الناشر: دار الفردوس للنشر والتوزيع، ط: ١ سنة ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م.

١٦- مواقف دعوية من حياة الصحابي الجليل الداعية مصعب بن عمير رضي الله عنه، الناشر: دار الفردوس للنشر والتوزيع، ط: ١ سنة ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م.

١٧- الاستشراق أهدافه ودوافعه، ويليه تراجم أعمال المستشرقين الذين ورد ذكرهم في كتاب الأعلام، الناشر: دار الفردوس، ط: ١ سنة ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م.

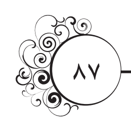
١٨- مصادر المنهج الدعوي وخصائصه، قيد النشر.

أما الأبحاث العلمية المنشورة في مجلات علمية محكمة فهي:

١- بحث محكم ومنشور في مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية، التابعة لقسم الشريعة الإسلامية، بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٧٦، سنة ٢٠١٧م، وعنوانه: الإمام علاء الدين السمرقندي وترجيحاته الفقهية.

٢- بحث محكم ومنشور في مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية، التابعة لقسم الشريعة الإسلامية، بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٨٠، سنة ٢٠١٧م، وعنوانه: الإمام علاء الدين السمرقندي وترجيحاته الأصولية.

٣- بحث محكم ومنشور في كتاب المؤتمر العلمي الدولي الخامس للحضارة والتراث العربي الإسلامي، سنة ٢٠١٨م، قدم إلى المؤتمر المذكور، وعنوانه:



الدكتور قطب بن مصطفى سانو (قراءة تحليلية نقدية لكتابه أدوات النظر الاجتهادي المنشود في ضوء الواقع المعاصر).

٤- بحث محكم ومنشور بعنوان: عناية علماء الغرب الإفريقي بالفقه الإسلامي قضاء، الناشر: مجلة وحدة الأمة الإسلامية، مجمع حجة الإسلام، الجامعة الإسلامية، دار العلوم، وقف ديبوند، الهند، العدد السابع عشر، شهر ربيع الأول، سنة ١٤٤٣هـ ٢٠٢١م.

٥- الدراسات الدينية الإفريقية (مدينة طوبى الغينية نموذجًا) بحث مقدم إلى مؤتمر أفريقيا الدولي المنعقد في تركيا مدينة ملاطيا تنظيم جامعة إينونو التركية (مركز البحوث الإفريقية بجامعة إينونو).

★إضافة إلى عدد من المقالات المنشورة على موقع كنانة أون لاين.

للتواصل مع المؤلف

رقم واتساب

01110589704

01067965966

sackoabdourahamane@icloud.com

